التجاريب

وهي مجموعة مقالات اجتماعية

ولي الدين يكن

عني بطبعها فؤاد مغبغب

بمطبعة جرجي غرزوزي بالاسكندرية

سنة

١٩١٣

مقدمة المؤلف بخط يده

كل ما يتعلمه المرء من حوادث الأيام تجربة . وما يستفيد التجربة مستفيدها إلا وقد استكملت تجربة من الأمل . ولولا تعني بتقييد اللحظات وهي أغلى ما تبقى لفاضت من الكتب الضخمة رسائل . ولكن ما يسلم من النسيان قليل . وفي ذلك الفضل ذكرى إذا استعادها المرء وجد راحة في استعادتها . هذه الأيام مصورة وتكاد منجردة . هذه هدية القراء المفتوح الأفئدة المفتوحة . أين الأفئدة تحيا تتعارف بها وتتآلف إذا لم تقع اليوم تقع غدًا



ما كان اهنأني واسعدني   لو كان ينفع معشري قلمي

انا لي فوءاد لا انزهه   لكن يراقب ما يقول فمي

ولي الدين يكن

التجاريب

١

استغراق لحظة

بين صدق النهى وكذب الاماني	وقف الرأي والهوى ينظران
للهوى جرأة وللرأي حكمٌ	والبرايا لديهما شيعتانِ
يا نفوساً جنى الشبابُ عليها	قضي الامرِ واستراح الجاني
لست ألحاكِ في زمان غرور	فلقد مرَّ في الغرور زماني
والخيال الذي صبوتِ اليهِ	قبل عشرين حجة اصباني
خبر الناس ايها النيل عني	واشهدا معهُ ايها الهرمانِ
المغاني التي بكيت عليها	باقياتٍ – أذكري يا مغانِ
غازلتني عيون زهرك حيناً	وقماريك رددت ألحاني
واذا انت حال عهدك بعدي	فكما شئت مهجتي ولساني
يا ربوع الهوى بأية كأسٍ	قد سقاني فيك الهوى من سقاني
بلبل مشتكٍ وورد مصيخٍ	انظروا كيف يسعد العاشقانِ

اضحك الدهر معشراً جهلوه وانا منه عرفته ابكاني
كلما قلت للمنى ادناني جد حتى عن المنى اقصاني

***

ايها الشرق كيف حالك فينا ينجلي نازل فيغشاك ثانِ
هدمتك الخطوب صرحاً فصرحاً قوضت من علاك شم المباني
يظلم الناس بعضهم منذ كانوا طال ظلم الانسان للانسانِ
واذا كان في الحياة قليل من نعيم فذاك للتيجانِ
والعقول التي نخال انارت استترت في ظلمة الاديانِ

انتهيت من صحائفي السود وما صدقت ان سأنتهي . تلك فصول ادمجت فيها وصف آلامي . وكان طيها خيراً من نشرها لولا لجاجة نفس شديدة النزوان . ولو كان في نطاق الصبر سعة لاسترسلت فيها وبلغت بها غايتها . ولكن كان خير مما لو كان . وهذه فصول تجاريب . اقدم عليها جهلاً بمخاطرها . كالموغل في الاجمة بليل مسترخي السدول . لا يدري ما وراء اثلاتها وغاباتها . فان غمرت من مياهها وفوزت من قتادها . فتوفيق غير مؤمل من مثلي . وان ملكتني سورة هولها وأخذت عليّ

مراودها ومسارحها · فما انا اول ضال عن قصده · وفي حسن النية مأساة للآيس وتخفيف للملام

لقد رايت قوماً راعهم ما قرأوه من فصولي · اولئك فريقان · فريق من المسيحيين وفريق من المسلمين · اكبر كلاهما اقوالي ولم تنشرح لها صدورهم · فسكت عنها بعضهم ولامني فيها بعضهم · وانا في شغل عن الصامت واللائم · هـذا باب اجتهاد فتحته لنفسي · ولا يعرف مرادي أحد مثلي · ومن لا يعتمد ما ظهر من رأيي فليأتني بما يحسبني اضمره ُ أو فليدعني وليذهب عني بسلام · وحسبي اليوم ان اقول ما قاله ُ اكثم بن صيفي · ان قول الحق لم يدع لي صديقاً

رأيت كاتباً قال في احد فصوله انه ُ يحتقر من يترك الصوم في رمضان ويجهر بذلك · فعلمت انه ُ عرض بي · عفا الله عنه ُ · لو باليت مثل احتقاره لكنت في موضع غير الذي انا فيهِ · ولسوف اواصل جهادي حتى يقلل الله من امثاله · فان عشت حتى ادرك المرام كان ذلك فضلاً من الله وان تحل المنية دون الاماني فكم في هذا الشرق

من حر قلامة ظفره خير من حياة الف ولي الدين

وبعد فهذا ما استطلعهُ في استغراق لحظة . افكر في الشرق . تجلتني ابوته وتتقتني امومته . واليوم تشقيني محبتهُ . يا حبذا المهد ويا حبذا اللحد . توسده المجد وليداً ثم توسده ميتاً . بلاد وام . كلها حبيبة وكلها عزيزة

قلت في نفسي : ما يقعدني عن اصلاح هذا الوطن الكبير الذي احبهُ . فرحت اتخيل . جعلتني حاكماً علَى الشرق كلهِ قريبه وبعيدهِ سهلهِ وجبله . فشيدت معاهد التأديب واقمت بنايات العلم ورفعت بيوت الصناعة وضربت للعدل رواقهُ ومددت للامن أطنابهُ وزينت اسواق التجارة بالنفائس واستخرجت من بطون الارض كنوزها وخلعت عليها مطارف خصبها حتى سال النضار في جداولها وقر اللجين في قيعانها وقلت اقبلت عليك السعادة ايها الشرق وراجعك الاقبال ووقفت اسائل نفسي : أبقي للشرق شيء يحتاجهُ ام قضيت لهُ حوائجهُ كلها ؟ واذا انا بمكاني من التقصير والتفريط

واحر قلباه ! ما ينفع كل ذلك وبين احناء الاضالع

وفي سويداوات القلوب نفوس مستعصية عَلَى الخير اذا وكزتها اوضعت واذا لاطفتها حرنت · فاهلها كالعير لا يسيرون الا وخلفهم العصا · فمن هؤلاء المعاندون ومنهم الادعياء والكافون بالرئاسة كعبيد الله استطال على العرب ثم استثار تعصب المتعصبين على قتل المسيحيين ثم وقف ينتصر للالمانيين ويحض الناس عَلَى قتال الانكليز · ومثله كثير في البلاد العثمانية وفي مصر وفي غيرهما من بلاد الشرق

وبينا ينادي حماة الانسان وانصار نجدته الى الاخاء · اذا صحف جديدة تأتينا وكلها دينية · منها المسلمة ومنها المسيحية · جدال استعرت ناره بين المآذن والنواقيس والمشايخ والرهبان كل يصحح دينه · وكلٌّ دينه في غنية عن التصحيح · وما عاقبة هذا · واين يكون مستقره · وقانا الله لفحات قيظه ·

قلت: الخطب ايسر · لتفق حكوماتنا عَلَى طرد هؤلاء الناس او تكرههم عَلَى السكوت حتى تكشف عنا غماؤهم

وتسكن عواصفهم . ثم استطلت تأملي فألفيت المعضلة على اصلها ما حللت لها عقدة ولا قاربت لعقدة حلاً . ما حيلتنا في هذا البارض النضر الذي اتى بهِ ربيع الحياة . اريد فتيان اليوم ورجال الغد . يذهبون الى مدارسهم فيتعلمون بها ما ينير بصائرهم ويصفي نفوسهم . وينفق عليهم الذهب من خزائن الحكومة وارزاق اهلهم كالمطر الجود . حتى اذا اشربتهُ قلوبهم وماج في صدورهم غلبت على شدتهِ نفثة من نفثات معمم او مقلنس يأتيهم مسترزقاً ويدانيهم مجترئاً . فرأيت روح عبيد الله تجول في كثير من تلك الاجساد الطاهرة . فقلت واسفاه

وعن لي بعد ذلك خاطر جديد : حال بناتنا . نغذوهن الصحة ونعلمهن النضرة ونربيهن على حواشي العز ونسيرهن في مهرجان النعيم . فاذا بلغن غاية ما تشتهي الانفس اسلمناهن الى بعولات كالازواد جسوماً وكالبعوض احلاماً يرفعون بينهن وبين الحياة الطيبة اسواراً . يغارون عليهن من شعاع الشمس وبرد النسيم . ولا يغارون عليهن من يد الموت

ولا ضم الجدث

فلما كثرت في صدري هذه الوساوس واطبق عليّ ظلام اليأس عرتني هزة كهزة الكهرباء خرجت بي من استغراقي . فندمت عَلَى تخيل حول وطول ما خلقت لهما ولا قبل لي بهما ولا تمنيتهما فيما يتمنى . وصحت واحرباه . برح الخفاء ووضحت السبيل وانا لا محالة خاسرون . ولرب فكر لحظة افادهم الابد . ما اهون هذه القلوب على خطوب الدهر . وما اضيع ودائع الاماني في ذمم الايام . ولو عني الناس بوصف كل هم واغل ووجد مستحدث وشجن مستثار لذابت الافئدة وضجت الى بارئها الارواح . غير ان الجد في السعي والاستمرار على النصح يهون الخطب ويؤخر يومه . وما انا من تسمو به همته الى ادعاء ذلك ولكن للعلم في عصرنا نهضة شخصت لها الابصار وعنت الوجوه . وكلنا عَلَى آثار رجاله لسائرون . فنعم مفتاح باب المعقل الاشب

***

٢

ان اكثر الجد هزل

التاريخ ديوان العبر ومرآة الاخبار · ثم هو شاهد الزور وراوي الاكاذيب · هذه دعاوي لا تحتاج اقامة البينات وهذا ايماني لا يزعزعني عنه جدل ولا يغلبني عليه شك · واذا كان فيما لدينا من اخبار القرون الاولى شيء لم يموه بالكذب فذاك قليل بل اقل من القليل · ومن البلية ان لا نستطيع التمييز بين الصدق والكذب في واحدة من تلك الروايات لبعد العهد وامتناع المرجحات

وفيمن اطراهم اهل التاريخ اناس مجدهم من غيرهم : معاوية سوده ابن العاص والعباس توجهُ الخراساني · باء الملكان بالسؤدد والعز وفاء الخادمان بمواهب وقعت ثم انتزعت · والملكان كلاهما ثائران عاصيان صدقهما الجد وجرت علَى مايبغيان الحوادث · فنشأت دولتان كبيرتان ملأتا اكثر الصحائف

من كتاب التاريخ

كنت جالساً ذات يوم مع صديق لي من خيرة الكتاب . فجرى بيننا مثل هذا الحديث . فقال صديقي احمد الله ان احرقت دار الكتب التي كانت بالاسكندرية . قلت ولما ذلك : قال من يدري كم حوت من الاحاديث الملفقة والاكاذيب المبتدعة فاكلت النار جميعها . وزالت عنا حماقات لو دامت لنا لاضلت عقولنا . قلت : صدقت

ان الازل والابد لمجهلان من مجاهل الزمان ما ارتاد احدها فهم من الفهوم الا اضل قصده . ما سيكون مثل ما كان . ولان تشابهت الوقائع والحالات فان بينها لاختلافات جمة لاتخفى على اللبيب . والظنون — قاتل الله الظنون — تأوى الى نفوس الكاتبين فتذر عقولهم حيارى وتسير اقلامهم مفترية وآثمة . والويل لمن طابت سريرته وحسن ايمانه . فذاك يعيش عَلَى ضلال ويموت عَلَى ضلال

هات بعض ما كتبه المؤرخون في عبد الحميد يوم لم يخنه جده ولم ينقلب عرشه . ثم اقرأ ذلك من لا

يعلم صدقه من مينه يقل لك : ان عبد الحميد ملك لم تطلع الشمس على خير منه ويصدق بما قيل من زور وبهتان . ولو فاز العرابي في ثورته ووفت له الايام بلباناته لصرت الاقلام بمدحه وتغنت الافواه بمناقبه وعبد الحميد احد الظالمين والعرابي احد العاصين

يقولون التاريخ . وما هو التاريخ . افك وتأثيم . وان بين من سودوا صحائفه ونطقوا بكذبه لاناساً اجفل عنهم الحياء . يحكون حكاية الشاهد لا السامع . ومنهم من يتبع روايته قسمه . اصراراً على الزور والزاماً لقاريء كتابه . الا شاهت تلك الوجوه . وان فيما حدثنا به المؤرخون مثل قصة الزنبيل التي رواها الموصلي عن زواج المأمون ببوران وما زعمه صاحب العقد من حديث الرشيد مع ام جعفر حين هم بقتل البرامكة وما ادعوه من امر الدلفاء وابن عبد الملك الاموي لظرفاً وادباً ولكنه تضليل لعقول الناس وعار يلزم من نقله من المؤرخين

وبينا نعلل الانفس بأن ستذهب عنا هذه الخيالات

وتبقى لنا الحقائق إذا بنا نأتي بما لم يسبقنا اليه السلف ٠ كأن قد قضي على هذا الخلق ان لا يسمع الا لغواً ولا يعلم الا كذباً ٠ وما فضل عصرنا على خاليات العصور اذا بات علم من علومه ظناً من الظنون

توجهت يوماً الى صديقي جورجي افندي زيدان ٠ فاقبل عليّ بانسه وحديثه ثم اتى ذكر صحف الاستانة فأتينا علَى حسن طبعها وجودة ورقها و رقة صورها ٠ فناولني مجلة من مجلات فروق إسمها «رسملي كتاب» واذا فيها صورة رجل لو كان جهله علماً لكان الهاً ٠ كتب في اسفلها ان صاحب الصورة من مشاهير الكتاب ٠ قلت ياصقع الله هذه اللحى ٠ وياعوج الله هذه الاشداق ٠ وقلت ان زماننا كزمان غيرنا ولكن للماضين عذراً ونحن لا عذر لنا ان شاء الله

ورأيت كتاباً لعثماني هو نزيل مصر الآن ٠ اسم الكتاب «ما كابدته في سبيل الوطن» وموضوع الكتاب منّ علَى الامة وذم في جمعية الاتحاد والترقي ٠ وكل هذا يجوز ان يغلب عليه الصفح الجميل ٠ ولكن قدح المؤلف

في الماسونية او كاد · فسمج عندي تطفله ورأيت علمه دون كبره فانزلته منزلة لن يرقى منها درجة ولو ادلت الكواكب اليه اسبابها

اما آن ان نفيق · سكرة هذه يذهب فيها عمر الابد · كاد الدهر يموت ونحن كيوم خلق من يدعونه آدم · وبعد فلا ننثني عن التماس الجد وادعائه والهزل ينطق من عيوننا ويبدو على نواصينا · وما يمنعنا ان نحسن نفوسنا او نقوم طباعنا الا كلف بما يغاير الحكمة

لقد امر بالمكتبة من المكتبات فاذا لاحت لناظري مجلداتها في ذهبها ونقشها اعرضت عنها اعراض السائم وقلت كم في بطونك من زور وكم تنطقين عن هوى · وسبيل العزاء ان نقول كذا شاءت الاقدار · وما تشقى الاقدار بل يشقى انفسهم الناس · هاتوا من ينقض كلامي هذا · نعم نعم ان اكثر الجد هزل وان التاريخ ديوان العبر والاكاذيب

***

٣

التعصب يخرج الحرية من ديارها

هلموا الى نجدتها يا احرار

اسيرٌ بدار الظلم اعياهُ آسره
اما من فتى في الناس حرٌ يناصره
افي الناس احرار وفيهم احبة
فما لاخيهم لا يرى من يؤازره
عفاء على الزوراء بعد جميلها
اذا ربعهُ المعمور اخلق داثره
ألمّ بهِ خطب من الجور فادح
« كما انقض بازٌ اقتم الريش كاسره »

تنادوا به والضغن ملء قلوبهم
وقالوا وحيدٌ ما لنا لا نكاثره
فان نكفهُ نكف الشديد مراسهُ
وما بعدهُ فينا عدو نحاذره
فطافوا بهِ من خلفهِ وامامهِ
كما طاف بعد المحل بالربع زائره
احين هوى عبد الحميد بعرشهِ
وغيرهُ بالذم في الناس غابره
بقوم رجالٌ يستعيدون عهدهُ
وفينا نيازي قائمٌ وعساكره
الا قد بغت هذي العمائم بغيها
فدارت على القوم الكرام دوائره
الا لا نرجيّ العدل والعدل دوننا
مواردهُ محميةٌ ومصادره
تجلىّ زماناً ثم لم تبتسم لنا
اوائلهُ حتى استسرت اواخره

باي كتاب ام باية سنةٍ
يجازى على قول الصواب معاشره
باي كتابٍ ام باية سنةٍ
يريدون طيَّ الحق ان قام ناشره
سلامٌ على الاوطان من بعد مأمل
ذوى وارق الاقبال منهُ وثامره
سلامٌ على الدنيا سلامٌ على الورى
سلامٌ على العهد الذي قل شاكره
سنبكي عَلَى العيش الذي كان غرنا
وقد ساء ماضيه وما سرَّ حاضره
سقى الله اجداثاً علت شهداءوها
بكل ملث الودق تهمي مواطره
قضوا تحت اسوار الحصار حمية
ولم تغن عن عبد الحميد دساكره
فان يك بالدرويش قد زل جده
فهذا عبيد الله حلق طائره

اقام على الاطلال كالبوم ناعباً
يبشر بالتخريب ساءت بشائره
فاما قضى فيكم جميل بحسرة
ستبقى عليكم شاهدات مآثره
وان تحجبوا من فضله كل باهر
فليس ضياء الشمس يحجب باهره
اخي وفجاج الارض بيني وبينه
اعيذك من هم تبيت تساوره
اعيذك من وجد يضيفك نازلاً
واهوال ليل مظلم انت ساهره
توقف في ظلماته غير منجل
كواكبه تسطو عليها دياجره
تشوفك البيت الذي كنت بدره
لقد اظلمت حزناً عليك مقاصره
واصبح زاهي الروض بعدك يابساً
وناح عَلَى دوحاته لك طائره

فان تظلموا فيكم جميلاً لغاية
فان جميلاً ليس يغفل ثائره
وان فريق الظلم ان طال ظلمه
سنمشي اليه بالسيوف نبادره

ايها العالم الجليل استاذي الدكتور شبلي شميل

اهبت بنا فأسمعت . قرأت في المقطم ما سطرته اناملك الطيبة . وانا طريح الفراش طليح الهموم . نخلت السقف وقع على راسي ونهضت واقفاً وها انا اسطر هذه السطور ولا ادري هل اجد جلداً الى اتمامها

كنت قرات ردود المؤيد على العلامة الزهاوي فاستشعرت وجلاً واحس قلبي بالشر . ثم عاجلتها بكلمة عنوانها (المراة المسلمة بين القاتل والفادي) نشرت على صفحات المقطم الاغر . غير ان كلام السوء انفذ سهاماً واشد اصابة لمقاتل الرجال من كلام الخير فذهبت صيحتي ولم يرجع لها صدى ودوت صيحة المؤيد واشياعه لتمام

المحنة ولشقوة الامجاد · هكذا داب الشرق يفلح الغاش ولا يفلح الناصح

قلت حين نبذوا لنا جيفة الدستور : نوءازر هوءلاء القوم القائمين فينا بالامر · ربما اصابوا من حيث لا يشعرون وكم رمية من غير رام · ثم اوائل الدول تاتي بمخلوقات عجيبة كصندوق الدنيا فيه عجائبه · وقلت اطمئني ايتها القلوب واسكني يا ثائرات النفوس ووقف اخواني العثمانيون يتفرجون فما راعنا الا مذابح وفتن وغارات تتلوها غارات وصخب وضجيج بين نواب الامة يتجاذبون اطراف الفوائد كل يريد ان يسمن كبشه · فبدت السرائر في اشكالها والقت الافواه بما اخفته الصدور · فقلنا عَلَى الآمال والمستقبل السلام

ولما افتر التعصب عن نواجذه اقمنا نقصد المراثي لننوح بها على الوطن في جدثه · غير اننا حار بناه فغلبنا واستجرنا بانصار الادمية فلم نجد مجيراً · وما بنا ان نلقى المنية في جهادنا ولكن من لهذه المخازي بعدنا يسجلها في دفاترها السود لتبقى عظات خالدات للاعقاب · هذا داء اعضل ·

قلت الحيلة في استئصاله . وانت طبيب لا يزاد مثلك علماً وترى عبيد الله يسعى في اديم كاديم التمساح . لا تعمل فيه النبال ولا رصاص المرتيني ومن لنا بأوزر اولوبيل ولي متفورد فنجربه في جسده عسى يستشعر المّا او يحدث في خلقه تغيراً . هيهات هيهات

وكم من مثل عبيد الله . وقوفاً متمرين يحفرون للوطن لحده والامة تنظر ولا ترى . هي في حاجة الى الدرس والدرس فات زمانه وما يجدي الدستور اذا كان الشعب لم يتهيأ للدستور . جنى جان جناية كلنا مأخوذون بها اليوم

وجرم جره سفهـاء قوم

فحل بغير جارمه العقاب

اخواننا الذين يظلهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام . وهم معذورون ثم شفار ارهفت وسيوف سلت تقتطف الرقاب كما تقتطف الثمار . ومن قام مصوتاً بصوت قامت عليه نوادبه . ونوابنا حماهم الله عيون الحاسدين كجماعة الاوز تتحاوم على مناهل الماء . لكل امريء منهم شأن

يغنيه وفي القتيلين عَلَى جسر غلطة عبرة للسائلين

اما لو يفيد العتب لعصفت به عواصف هذي القلوب اما لو يغني النصح لامتلأت به بطون الدفاتر . ولكن قال ابو الطيب

يراد من القلب نسيانكم

وتأبى الطبائع عَلَى الناقل

على انني اري رايًا اخاله يخرجنا من هذا المأزق ولا تتسع له هذه السطور وما هو مما ينشر بالصحف السيارة . فاضرب لي ميعاداً توافيني فيه الى عند الاساتذة اصحاب المقطم هنالك ابسطه لكم وتنظرون انتم فيه

وبعد فيا ايها المسلمون . انا مسلم مثلكم . يحزنني خسرانكم ويشركني معكم مصرعكم . هؤلاء الرجال الذين اثقلت هاماتهم العمائم اكثرهم لا يعقلون . كان عبد الحميد يقتل الناس ويظلمهم وينفيهم وينهب الخزائن وكل هذا حرام في دينكم فما قام في وجهه واحد منهم ناصحاً او رادعاً . ولكنهم اليوم وقد وسعتهم بلاد الحرية يكرهون ان يروا

حراً يتكلم · يهاجمون من لا يكون من فريقهم · يملأون الدنيا صخباً وضجة · يكفرون الساعل والماخط والآكل والشارب حتى لقد زهدونا في الحياة وهم اشد الناس بها تعلقاً · فلا تجعلوا لهم سلطاناً عليكم فيكسبوا من خسرانكم ويسعدوا بشقائكم وانتم لا تعلمون

ان ينزل بالزهاوي نازل من الظلم فتلك سبيل ابناؤكم سالكوها غداً · فإلا يحزنكم مصرعه فان في مصارع ابنائكم ما يستدر جامدات العبرات · ايهٍ لكم · قطعت الشعوب اشواطاً في منازل الحياة ونحن الى الوراء راجعون · لا تكونوا واسطة السوء بين الاسلاف والاخلاف · اما لتقذفن لكم الارحام باضاحي كالتي شهدتم تلبسون ليومها السواد ويطول عليها انينكم تحت طيات الدياجر

استجار المقطم الاغر بالوالي وبالرئيس · لك الله انما تستجير من الرمضاء بالنار · بحت الاصوات وتقطعت الانفاس واضطربت الجوانح وعيت الالسن وشلت الانامل

وقد اسمعت لو ناديت حياً

ولكن لا حياة لمن تنادي

ألا في سبيل المجد والحق والحرية شهيد جديد . اذا لم يخنه جده ويرن في الاسماع نعيه فقد جاوز مهالك عظيمة . وان حم حمامه لا (قدر الله) فانا له ثائرون او به لاحقون وليروَ ثراك ايها الوطن بدمائنا ان لم تَروْهِ انهارك ولتقم في جوانبك المناحات على انصار الحرية وابناء آدم شهود .

كتبت هذه الرسالة والتي بعدها على اثر اضطهاد حكومة بغداد للاستاذ الفاضل والعالم العامل الشيخ جميل الزهاوي وعزله من منصبه وزجه في اعماق السجن لكتاباته بشأن المرأة والحجاب

٤

الاحرار واعداؤهم

قال قيس بن زهير

اذا انت اقررت الظلامة لامرىء
رماك بأخرى شعبها متفاقمُ
فلا تبد للاعداء الا خشونة
فما لك منهم ان تمكن راحمُ

لله ابوهُ . ما اصدق قولهُ . وما اعرفهُ بمواضع الرأي . ان طوائف المتعصبين الذين اجفلوا من سيف الحرية واظهروا الرضاء بالانقلاب العثماني يصدق فيهم هذا الكلام . لقد خفضوا لنا اجنحة الذلة وابدوا جانب الاستكانة رهباً لا رغباً . والظلم كمين في نفوسهم يخمد الضعف جذوته وتلهب القوة جمرتهُ . ولو امكنتهم الغرة لاقتحموا الينا الاهوال

ولاخذونا من نواصينا ولجرونا على بطاح الارض جر المحتطب حزم الوقود . كل ما تتحرك بهِ السنتهم من قول لين يخرج من قلوب استوطنها الجبن وتوجبهُ عزائم استولى عليها الخور . يكذبوننا المودة ويحتفرون لنا القبور . يد قد بسطت بالضراعة واخرى في قائم العضب ومقلة مسبلة بدمع كاذب واخرى تتحرى مواضع الاسلاب . هذا هو الود الذي مزقه التخالف وتحاول ان ترفعهُ الحاجة . باءُوا باثم الغواية كما استقلوا بخزي النفاق

اقام عبد الحميد بصرحهِ الممرد ثلاثة وثلاثين عاماً . كان كلما انحى بشفرته على رقبة علت من جوانب ملكهِ صيحات الصائحين . الله اكبر الله اكبر . وكانت كلما غذت الوالدات اطفالهن ناداهم اولئك الابرار : اسمنوا ضحاياكم . وكان الملك الاحمر بين اقطاع الضعاف من رعاياهُ تتساقط حولهُ الذبائح والمنابر تهتز بالادعية والمدائح . قالوا في تمجيده : ظل الله في ارضه . وسلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين . باني الكون . المتصف بصفات الملائكة . من عتبتهُ بمنزلة

الافلاك . وقالوا في الدعاء له اللهم اطل في العز ايامه وحكم سيوفه في رقاب اعدائه . وانصر عساكره وامدده بجنود من ملائكتك . ورعاياه المذبوحون يسمعون وهم في آخر كل دعاء يقولون بفم رجل واحد آمين اللهم آمين . مولين وجوههم شطر القبلة شاخصة ابصارهم مبسوطة اكفهم . ونحن نقول : يا هؤلاء نحن مظلومون . فيقولون : انتم كاذبون بل انتم معتدون . وما فتئت الامة المسكينة يقص زمان عبد الحميد من حواشيها حتى اودى خيارها وبقي شرارها وهم اليوم يكفرون الباء الملل ويحاولون ان يستعيدوا الكرة

الآكل من كسب غيره وهو قاعد لا يحمل نفسه عناء السعي لرزقه . واذا علمت الامة حقائق الاشياء وبصرت بضلالات اهل التعصب قبضت عنهم جدواها ومنعتهم ورد جودها . والقوم يعلمون ذلك ولا يدانيهم فيه ريب فمن اية الطرق يأتي نحوهم الانصاف . لو جمعنا العمائم التي بالبلاد العثمانية وجعلنا بعضها فوق بعض بنينا حصناً يعجز

عن هدمه اسطول انكلترا باسره . ما في هذه الجوزات ما يرجى منه اقل الفوائد الا آحاد لا يصعب تسميتها . وما بقي من ذلك الجمع العديد . فانصار الاستبداد . سواء عليهم حق وباطل . لا يعجبهم من الحياة الدنيا الا الجفان او ما يكون ثمناً للجفان . اروني واحداً من هؤلاء المبردين يكون جاد بدرهم واحد في خير يريده — يا بعد ما تمنى به النفوس . هذا والقوم كلهم مثقلون بالصفر والبيض يجعلونها في اشداقهم كما تجعل القردة ما كلها في اشداقها خيفة خاطف يخطفها . ثم اذا التفت عليهم المحافل الفينا كل عثنون كحديدة الفاس يضطرب غضباً لراي رآه احد العقلاء فكم من عنفقة كذنب السمكة تهتز على اثرها وتغضب لغضبها . ما اشقانا بهذه المخلوقات يغشوننا ونغشهم . ختل بختل . كل فريق يود ان يحرز الغلبة على مضاده بحيلة يحتالها . ولبئست اسباب الفوز في هذه الحرب العوان اتفق المنافقون من ادعياء التقوى ان يظهروا حسن النية ويبدوا جانب الود لمخالفيهم وذلك بعد ان شرت سيوف ابطال الحرية من النفوس وباعت . فلما

افرخ روعهم وثاب اليهم بأسهم السالف اسمعونا صريف انيابهم وقلبوا لنا صفحة الود · واضحت تلك الالطاف احاديث مغتبق ذهبت الكميت بلبهِ · او اهازيج طير استطير من عشه فذهبت الريح بصداها ·

آكل اللحم لا يغذوه النبات · والسمك لا يعيش في غير الماء ولو فرشوا لهُ خدود الملائكة وجعلوا مساكنه سواد المقل · والمعمم لا يطيب لهُ مقعد علَى متن طائرة ولا على ظهر دارجة · ومخادعة الناس بدعة من بدع عبدالحميد · وليس من الانصاف ان نبغض الرجل لظلمهِ حتى نزيله عن سلطانه ثم نعاود شأنه ونستعيد سيرته ،

وبعد فقد راى قراء المقطم الاغر عجائب في نهج حكومتنا العثمانية · رعاها الله · تاتي بالواحدة من باهرات الحكم حتى لتعشى عندها الابصار وتتضاءل انوار الفهوم · وبينا تلهج الالسن باطرائها وتعقد الخناصر على كل اعجوبة من مآثرها اذا بها كمثل الفصل المضحك في آخر رواية كلها حكم وكلها عبر · وما نريد ان نحصى تلك الخطيئات

وليس فينا شامت ولا بيننا عدو رقيب · ان لنا في مفاخرها ومخازيها لنصيباً يصيب كل مستظل براية الهلال · غير انا معيرون بهاتيك الخطيئات ملزمون من خصوم غير غافلين بالزاماتها · لا حكمة نستبين بها المراد مما نرى ولا في اولي الامر من يتكلفون بياناً لما اشكل علينا · وليس لدينا من يدعي علم الغيب ولا من يستطيع كشفاً لما تخفيه الصدور

واقعة العلامة الزهاوي ليست فذة في مواليد الشرور · ولكن لها اخوات تخالفها ظواهر وان لم تخالفها حقائق · لقد وقع مثلها لصديقي العثماني الحر يوسف سامح بك احد الموظفين في نظارة الحربية المصرية · ولو كان هذا الفاضل ممن قضى عليه شقاء الجد ان يقيم في بلادنا الدستورية لسمعنا عَلَى بعد الديار انينهُ في سجنـــهِ وصليل السلاسل على سواعده · ويوسف سامح رجل من العثمانيين الاحرار الذين هاجروا من بلادهم ورأوا في ارض مصر اكنافاً موطاءة وجوانب مذللة فصدقها الخدمه وصدقته الجزاء · ولما انتشلت

الامة حريتها من كف سالبها وتباشر الناس بعهد جديد وصفو مقبل راى ان يتحف اخوانه العثمانيين من العنصر التركي بكتاب جليل الفائدة جامع لاشتات الحكمة وهو كتاب تحرير المرأة الذي وضعه العالم الحر المرحوم قاسم بك امين فترجمه الى التركيه باجمل اسلوب فاصدر مجلس الوكلاء بالاستانة قراراً اداريا يمنع به دخوله الى الاقطار العثمانية . وقد علمنا ان الحكومه توخت هذا الجنف استرضاء لفريق المتعصبين . فهذا قلم مذرب تريد الحكومه الحرة ان تكسر شباته . والدستور رهين الارادة . فيوماً هو بمنزلة الوحي ويوماً هو مهجور ومنسوخ . قاتل الله الاهواء

لا ندري ما خطب حكامنا . يقودون ام يقادون .

الامة قاصرة وقيمها الحكومة واذا اطاع القيم اهواء القاصر تعطلت احكام الحكمة . وما أرخي العنان لقوم حديثي عهد بالعتق الا اشتد جماحهم وتعذر كبحهم . وكما ضمنت الحكومة تعليم الامة فرض عليها ان تضمن تربيتها . ان لاهل الصلف المتزهدين والمتورعين من الخطل ما لا يستطاع معه احكام

امر . وحسب هؤلاء ان تدر عليهم هبات المحسنين وان يأتيهم رزقهم رغداً . ان يقنعوا فذلك الكفاف وان يطمعوا فيما وراء ذلك فنصح نافع او زجر رادع او لجام مصرف في يد تعودت حبس الاعنة واقتياد الصعاب

الاديان مناهج للناس الى ما يستطاع من الكمال . فاذا هي تجاوزت ذلك واضحت سلعاً يتجرون بها كان شرها اكثر من خيرها وان من اشد ما ينزل بالحر ان يبلى بقوم لا تسمو مداركهم الى مقاصده فيتعسفوا في تأويلها الشبهات حتى اذا اعيتهم المناظرة واعوزتهم الحجج عمدوا الى الفساد فاستثاروا العامة الى الوقيعة وفزعوا الى الختل والغدر واكبر من هذا ان تكون الحكومة عوناً للمفسد على المصلح لا اعتقاداً بايمانه ولا اعجاباً برأيه بل تحبباً اليه واقراراً بالعجز عن اخضاعه وتقويمه

لقد ذهلت حكومتنا الدستورية عن الدستور في قضية الزهاوي وفي كتاب المرأة الذي ترجمه يوسف سامح بك ثم فعلت مثل ذلك بكتاب كان ترجمه صدقي العثماني

الحر الدكتور عبد الله بك جودت. كفانا الله شر الآتية من المفوات. فهي ولا شك اشد وانكى

قيل لرجل: لمَ لا تصلي. فقال ان الله توعد المصلين في قرآنهِ الكريم اذ قال: ويلٌ للمصلين. قالوا لهُ ولكن بقية الآية تنفي زعمك وهي قوله تعالى: الذين هم عن صلاتهم ساهون. قال انما ذكرت ما احتاج اليه وتركت ما لا حاجة لي به. ولاحد الشعراء الاقدمين بيت في مثل هذا المعنى وهو قوله

ما قال ربك ويلٌ للأُلى سكروا

بل قال ربك ويلٌ للمصلينا

فهل تريد حكومتنا ان تجري في اتباع احكام الدستور على هذا المنهاج. تحتفظ بما لها وتسهو عما عليها. ان هذا الا ضلال مبين

عمرو بن معدي كرب الزبيدي كان من الصحابة. توجه ذات يوم الى صديق له فحياه بقوله: عم صباحاً. فقال الرجل لعمرو: او لم يبدلنا الاسلام عن هذا بما هو

خير منه وهو السلام عليك . قال عمرو دعنا مما لا نعرف هل لك في جدي مشوي وخمر معتقة . قال الرجل اتشرب الخمر وقد حرمها الله علينا في كتابه . قال عمرو والله اني سمعت ما بين دفتي المصحف فما وجدت لها تحريماً . غير انه قال : فهل انتم منتهون . فقلنا لا

لقد مضى على الهجرة ثلاثمائة والف عام فاروني اليوم رجلاً يقول مثل ما قاله ذلك الصحابي ويبيت في مأمن من خطب يحل بساحته . اما اننا ليصدق فينا المثل الفرنساوي : اشد تمسكاً بالملك من الملك

لكل ذي فكر رأي يراه . فان كان صواباً فالفوز له وان كان خطاء فلا جناح عليه والمدارك درجات بعضها فوق بعض . ودركات بعضها دون بعض . وان امامنا لدستوراً يشمل حكمه رقاب الانقياء وغير الانقياء . حسبنا ذلك هدياً وحسبنا شرعاً . البار اخونا والفاجر اخونا ورحمة الله وسعت كل شيء

نبئت ان رجالاً من اهل الفضل جمعهم محفل ادب

ليلة نشر استفتاء العلامة الدكتور شبلي شميل . فاخذ كل يظهر ما عنده . فقال قائل : ان الزهاوي رجل متبذل في دنياه وقد كتب ما يعترض اصل الدين وارى ان نوآخذ الحكومة العثمانية من غير هذه الوجهة . قلت هذا ينطق لسان حاله بقول ابن الصمت

وهل انا الا من غزية ان غوت

غويت وان ترشد غزيــة ارشد

تفتأ هذه الحسرات تأكل قلوبنا وتستطير آمالنا وتوهي عزائمنا لولا ذمة توجب مواصلة الجهاد ونخوة تأبى اقرار الظلامة . فان يحرم اخواننا الذين هم في اوطاننا من ثمار ما تجود به كبيرات العقول فان تلك الكتب باقية خالدة . لا تمحى كلماتها ولا تجفل معانيها ومن صبر ثلاثة وثلاثين عاماً يصبر عشرة اخرى حتى يأتي الفرج وانه لآت وانوف المتعصبين راغمة . فاطمأني ايتها النفوس اطمأني

٥

بعد الموت

اما آن ان يسترجع الدهر ما مضى
فترجع آمـال وتقوى عزائم
لقد كدت انهى النفس عما تريده
من النصح لولا ما تجر العمائم
وما زالت الايام حرباً علَى النهى
فان سالمت حيناً نختلاً تسالم
ارى الناس هاموا بالمعـالي صبابة
ولا عجب اني كذلك هائم
وهذي طباع لا يرجى انتزاعها
تنـاط بقوم اذ تناط التمائم
ستبقى بلاد الله تطلب منصفاً
وهيهات ان ترضى بذاك الصوارم

بعد الايالي الطوال والسهاد المستديم والسقام المبرح وحوادث تلاحقت بها حوادث يرجع طريد النوائب . على ظهره كفنه الممزق وفي يمينه قلمه غير المجهود ليستعيد في التجاريب نوحاته . خلتني جلداً وما انا بجلد . اهون بمن بدا غيران مشتداً ثم امسى وانياً جزعاً . ابن الشرق كاخوته وما المشابه قومه بظالم

كم نداء من ذي ود اخترق الجنادل ونفذ من حجب الحياة . اهاب بي اهل النجدة فاسمعوا . ولئن تخاذلت عني جنود الصروف . وعافتني افواه الاجداث . فان ذلك لتمام الشقوة . لبيكم دعاتي . اليوم اعاود ماضي شأني وانتم سامعون

* * *

كنت قبل ان يلم بي الضنى جمعت اشياء اريد ان افيض في نقدها . رأيت ذاك الذي وسم المؤيد بميسم من التعصب ينادي بارفع صوته (نحن مسلمون قبل كل شيء) فنويت ان اعد الجواب

ثم عادت نغمة الترك والعرب والخلافة العربية والاعلام

المزركشة وقامت بالامتانة صحف الشباب تزعزع اركان الكون بصيحاتها . والعلم مرفوع بايدى صبية يسخرون من الراضي والساخط . فهممت ان ادعو الى الرشاد

ثم دوت في اذني استغاثات اوءلئك المظلومين الذين فصل ظلامتهم مندوب المقطم الفاضل في احدى رسائله فتجددت ثورة الشباب في نفس ذهبت بنجدتها وقائع الدهر . اطيرت الاظافر واسيلت الدماء وتوالت السياط عَلَى ابدان ترقرق عَلَى اديمها الشباب فقلت

افلا يزال السوط حاكمكم وابو السياط يلديز ذهبا
افلا يزال الدهر يعجبكم ضربٌ ومضروب ومن ضربا
وتقول احرار فنمدحكم لا حر فيكم . كلنا كذبا

ثم اتيت بهذه النفثة الى احد اساتذتنا الدكتور فارس نمر : فقال لي : ياولي الدين دع العجلة واستصف الاناة . اذا آخذت فاخذ ولكن بعد ثقة وان اثنيت بخير فاثن ولكن بعد ثقة . وهذا المقطم لا يتقرب الى احد ولا يملق احداً ولكنه عثماني مخلص في عثمانيته . غير هياب ولا وجل .

تمهل تمهل . اذا دعت الحاجة الى هذا الغضب فنحن ولا نزاع سابقون ولكن لا تستعجل الان بالضجر . فكان كلام الاستاذ . بمنزلة الدواء على الفؤاد المريض . به استقر الجأش وعادت السكينة

ولم تزل الكتب والرسائل تتوالى عليّ من اخوان الحرية وفرسان الحق . تلك دعوات لم يطاوعني تلقاءها احجام ولا تثاقلت بي خطوات . وكان الحمام ممسكاً بخناقي يريد ان يطوف بي معاهد طافها الاباء والاجداد . الا سقى الله تلك المعاهد من عهاده . غير ان للنفوس اعتلاقاً بهذه الزخارف الباطلة . مال وبنون . ونحن نشقى بالمال والبنين.

* * *

ثم بدت ميمية الشاعر حافظ افندي ابراهيم . هذه ثانية قصائده التي انشدها احتفالاً بجمعية رعاية الاطفال . حبذا الشعر تقف عندهُ البدائه حيارى . « قفا نبك » واخواتها اودعت من القول في صوغ الكلام وتأليفه ما لا يسمو

اليه حافظ . وميمية حافظ اودعت من المعاني العصرية ما لم يلهم به كل شاعر من ملوك الكلام في ماضيات الايام .

سبحان من قلده مفاتيح البلاغة ومكنه من نواصي المعجزات .

لولا مخافة التهمة بالحسد لنافست حافظاً في هذه البدائع وهيهات ان ينافس فيها

ليت حافظاً كان رضي من نعمة القلم بمكانه من البلاغة والفصاحة وترك ما دون ذلك لغيره من عشاق الشهرة . اذن يظل كالهندواني العضب لم يغشَ صفحته الصداء ولم تتغلب على حقه صورة الباطل . وليته ترفع عن مدائح الناس وضن بمجد لسانهِ ان يذال اذاً يظل كاولئك الذين في الغرب خفضت لهم الرؤوس ودانت الرقاب وتضاءل عند مجدهم مجد المتوجين من العباد .

الناس في حاجة الى الصفاء والوداد وكلاهما في حاجة الى ان يترنم به الشاعر ذو القافية المظفرة كحافظ وغيره .

ولو وقف حافظ عن يميني «وغيره» عن شمالي ونازلنا جنود التعصب لشردناها عن ديارها ولاخذنا اعلامها ورجعنا باسلابها ·

يا حافظ · يا حافظ · ما الى المزيد من الشهرة سبيل ولا لفضلك مكابر · ولكنك تجعل نفسك في غير موضعها · دع السياسة ان لم تكن فيها رشيداً ودع المدائح إن في اسلافك من اعجزك واعجزني · ادع الى الاخاء يحفظ لك النيل ذاك ويشهد لك به الهرمان ولا تنكر لغرض خيراً اتى · كذا ينبغي ان يكون كبار الرجال ·

التجاريب مفاتيح الامور · والمريض لا يستطيع ان يكتب اكثر من هذا وعفو القارئين اعظم من عجز العاجزين

٦

نعم الجدود ولكن بئس من تركوا

يقول اناس ان كتاب التاريخ يحصي الحسنات ويحصي السيئات . كذبوا . ما يحصي الا بمقدار ثم ينسى الطيب وينسى الخبيث الى ان تهيج الشجون لساناً ناطقاً ويراعاً ماضياً فيذكر اولي الالباب . يا عقول ويا قلوب . لشد ما تتغلب عندك الاضداد من الحق والباطل فتتعاورك الشبهات ويصعب عليك القول الفصل . والدرهم والدينار لعن الله الدرهم والدينار . يطلبان مكامن الحرص او منافذ الاهواء . الشرق مقتول باسياف بنيه . مجده مجده . نهب مقسم بين عداته . وورثة معاليه وخزنة مفاخره بين سكرات الصبا وبين آلام الحسرات . الا الى الله المشتكى . قلوب اماتها

الدهر فلا يبعثها منادٍ مسمعٌ ولا مستغيثٌ مسترحمٌ ولا داعٍ الى مكرمةٍ ولا مرشد الى محمدة . ما خطبكِ يا أيتهـا النفوس . ماذا دهاكِ يا غرائز وما بكِ يا طباع .

ان منا من كان شغلهُ حماماً يستطيرهُ علَى سطح بيتهِ او ديكةً يربيها ليضارب عليها ويراهن حتى محا الله آيات تلك المشاغل ووقع من دعاواهُ في حرج فخرجت آلاف الدنانير من كفهِ ربحاً حلالاً لكل طامع وكاسب . وان منا من يذهب الى منت كرلو فيخسر في المقامرة خمسة وعشرين الف جنيه لا يبالي فقدها ولا يجد لها وجداً ثم يحاسب سائقهُ على قليل من طعام . وان منا من يقيم لهُ حكومة في دارهِ مع كاتبهِ وخادمهِ ويقضي حياتهُ بمعزلة عن واجب الرجل الحر . كل هؤلاء لا يفرحهم الا اللهو ولا يحزنهم الا موت ديك او حمامة او ضياع صيد يفلت من ايديهم

وابراهيم الذي هجر راحتهُ وباع حياتهُ في خدمة وطنه

واقام بين اغوار اليمن وانجادها يشتم روائح الشيح والقيصوم لا تبقى لهُ باقية ذكر ولا يسطر لهُ في تاريخ الناس سطر. نحب التراث ولا نحب مستخلفهُ. كذا يكون الانصاف

على انني سأستوفي الكلام في فصول آتية فلينتظرهُ القرآء في مشارق الارض ومغاربها. دعاني الى هذا الكلام ما يقع باليمن: ان بهـا لداءً عقاماً اعيى الاطباء دواؤهُ. وانها لكما قال الثقفي في غابرات العصور «ارى رؤوساً حان اقتطافها وارى الدماء تموج بين الغلاصم واللحى». واحر قلباه عَلَى تلك الرؤوس وتلك الدماء الغالية وان لاهل اليمن عندي لوداً مكيناً تورثتهُ من أب بعد أب. يعرف ذلك من يعرف ابراهيم. الذي ولي امورهم حيناً من الدهر. وما كاتب هذه السطور الا حفيدهُ وأحد الذين ورثوا حبهُ لليمانيين

ولقد عثرت عَلَى اوراق هي محفوظة عند احد ابناء الاسرة اليكنية. عليها ختم محمد علي الكبير وهي مقيدة بارقامها بالدفترخانة الخديوية. عرفت بها كيف ساس اليمن

ذلك الفاتح واي طريق سلك حتى راض شامسها وكبح جامحها · وكانت هذه الاوراق الى اليوم تحت حجب النسيان · ولولا انتباه صاحبها الى ما حوت لذهبت باماناتها · ولم يلتفت اليها احد ملوك الديكة وسواس منت كارلو

ادع الآن ذلك جانباً · وانادي حكومتنا العثمانية بشهد من ابنائها : على رسلك · احبسي اليوم جنودك واستبقي دماء ابنائك · ان الحكمة تبلغ ما لا تبلغ القوة · وانا اقف اليوم عَلَى تلك التهائم واخاطب لك ابناءك العاصين فان افلح فرمية من غير رام وان تبلغ الشقوة حدها ففقد مثلي اخف من فقد احقر من في اولئك الجنود

نعم عندي لليمانيين كلام يسمعونه في حينه · فلئن ذهبت اليهم لاذهبن اعزل غير مستصحب احداً ولانازلن قرومهم بالحجة ولاخاطبنهم بلسان عربي يهز المعاطف من نسل الاقيال وابناء الملوك الحميرية

ما أنا برجل الدهاء ولا من جحاجح الرأي ولكن لديَّ تدبيراً أحكمته وأمراً استجمعته · وان اسير الا مستوثقاً

بعهود لا تخان. ان لا يخيبوا لمتظلم املاً وان لا يؤخروا اصلاحاً يراد وان لا يولوا تلك البلاد من لا يعرف لغتها ولا يدري أهواء اهلها ولا يقدر على ان يستصفي موداتهم ويسترضي قلوبهم فالا تفعل الحكومة ما تطالب بهِ من العدل والانصاف فلا نصير لها الا السيف والسيف يجز الرقاب ويخلي الربوع ويقري الوحوش والنسور اجساد الناس ويرفع استغاثات الارامل واليتامى الى ملك الملوك. الى من لا تخفى عليه خافية

فلتسألني الحكومة عما اريد ان أعمله اجبها بما يزيل الشكوك ولا يدع لريبة مستقراً. ما في الوقت من سعة ولا في الاهمال من خير. هذا رأي رايتهُ وعقول الناس تستولد الآراء. ثم هو احدى التجاريب والتجاريب امهات الحقائق والله بيده عواقب الامور

٧

كيف يموت الادباء في الشرق

بلغ من بغضي للشعر ان صرت اعرض عن سوانح معانيه في لوامع قوافيه . القاعد بالحدود عن منازل الشرف المتواكل بالعزمات عن بلوغ نهايات الارب . احدى فتن الخيال . تجري بها البدائه فتتلقاها مسامع بالقبول وتتلقاها مسامع بالملل . ابعد به وبطلابه

يتهادى امراء الذهب بين (شولر) وبين (سبلنددبار) تساقط اعطافهم الجنيهات و يطوفون حول معاهد الصبوة في عواصم الغرب من (منت كارلو) الى منت كارلو . ثم يأوون الى بيوت كثرت فيها الديكة والحمائم ثم يصبحون في لزباتهم يهبون المال في دعاوي ومخاصمات . فطلاق

وزواج وميراث وشركة يتخلل ذلك كله لعب الورق واستشارة الوكيل وادلال الكاتب وما ادراك ما الكاتب وبيع الاطيان واقتراض المال . بدرات تفيض العسجد وتنفجر عن ذوب اللجين والشاعر يريد ان يبيع ديوانه بقرص من الطعمية فلا يجد مشترياً والكاتب يعرض دفاتره مجاناً فلا يرى قارئاً فسبحان الله

علم من اعلام العراق . هو ابو القصائد المحبرة والقوافي المحكمة . نزيل بمصر . مقيم في دار حزنه يعالج ايامه ويعاني شدائدها وليس بمصر من يقول له اين اصبحت ايها الاديب العظيم . احمد مفتاح رجل البلاغة يموت ويدفن ولم تكتب خبر وفاته جريدة من الجرائد فيما علمت . ومحمد امام العبد وهو شاعر مجيد يوسد بالامس التراب ولا يتقدم احد ليقيم له ليالي مأتمه . وفي بلاد الغرب يصنعون التماثيل للشعراء ويسمون باسمائهم الشوارع والدوارع ويجعلون لميلادهم ولموتهم اياماً في كل سنة هي بمنزلة ايام الاعياد . ويقولون بمصر الدستور

والجلاء والمؤتمر . وتكتب الجرائد ليحيي وليسقط . من يحيي ومن يسقط ايها المساكين ؟

لكل امرئ في هذه الامة موضع يميزه . والناس في درجاتهم متقاربون . وليس رجل ينكره معارفه ويتجافاه اقرب اقاربه الا الاديب . فهو اذا برز على اقرانه حسدوه وان اقصر عنهم حقروه وان ولج جمعاً جالت فيه ابصار المستهزئين . ولله في خلقه اناس يفخرون بملابسهم وليست بصنع ايديهم ولا انسجتها من نسجهم ولا اثمانها من كسبهم ولا زينتها تجمل ما قبح من اشكالهم . اولئك يطأطئون الهامات ويذلون الرقاب ويتهادون في كل مزدحم تهادي الكواعب الرود في الوشي والبرود . طواويس الرجال يقضون طوال الاعوام في ديوان الحياة ثم يخرجون منه كما تخرج الانعام من تحت السقائف . لا متزودين ولا مستخلفين . الى حيث القت رحلها

اعرف اناساً كانوا وضعوا للديكة اسماء مثل عنترة وعبد هياف وابي زيد وهم لا يعرفون من اسماء ملوك

اوروبا خمسة. واعرف غيرهم كانوا يتعلمون من انواع الحمام كالهزاز والعنبري والغزاري ما لو علموا بقدره من المفردات لفاقوا علماء اللغة . وفيهم من اذا نظر توقيعه ظنهُ توقيع غيره هؤلاء تمر بهم الخلائق كما تمر بهم صور السينماتوغراف. فهم يرون ولكن لا يدركون . نخارهم ابهة ولائمهم . وان يقال فلان انفق عَلَى وليمتهِ كذا من الجنيهات . وحلاهم ثيابهم بها يتنافسون اذا جمعتهم المجامع . يقول قائلهم انا فصلت ملابسي هذه عند «كولاكوت» فيساجله الاخر قائلاً وانا فصلت ثيابي هذه عند «ريبو» . اسمعي يا ام الشرق واعجبي يا ام الغرب وميدي يا رواسي الارض واعلامها وغيضي يا بحارها ويا انهارها. عندي كثير من هذه الاحاديث وما سياتي اجلب للعبرات وابقى للحسرات . منك الصبر ومني الشكاة

ننظر الى الكتاب المطبوع باحدى اللغات الاجنبية فنرى مكتوباً عَلَى جلده الطبعة العشرون والطبعة الخمسون واكثر من ذلك . وقد يكون عدد نسخ الكتاب في الطبعة

الواحدة عشرة آلاف على الاقل وليس في الشرق كتاب طبع مرتين الا نادراً او ما كان متضمناً للمجون · وجرائدنا يأكل مشتركوها اثمان اشتراكهم فيها ويكتفي قراؤها بنسخ يأخذونها من المشتركين او يقرأونها في القهوات · وقد يبالغ في الغرابة بعضهم فيرد الجريدة مكتوب عليها (مرفوضة) بعد ان يكون قرأها اشهراً واياماً · واغرب منهم من جاءته جريدة (الجامعة العثمانية) وهي جريدة تنشرها (الجامعة العثمانية) في بيروت وتعطيها من دون ثمن ويكتب على غلافها مجاناً فرد الرجل الجريدة بعد ان كتب على غلافها بالعربية والفرنساوية مرفوضة · رفض الفضل ورفض الكرامة · لاطال ذنب زمانه · ولم يخجله كرم الذين احسنوا بها عليه احساناً لم يقع على مستحقه · ومثل هؤلاء المخلوقات كثير بيننا ولا فخر

يموت ادباؤنا وتطفأ انوار المعاني في عقولهم وتبقى بيوتهم خالية واجداثهم داثرة وليس فينا من تحدثه نفسه بأن ينقب عن اثارهم وينشر للامة ما طوي من معارفهم

قراراً بفضلهم وتخليداً لذكرهم واستفادة من آثار قرائحهم ونحاول بعد ذلك ان نجاري الامم او ان نشبه عباد الله·

ما اكبر جهلنا باقدارنا وما ابعدنا عن مواضع الانصاف

لا اديب العراق اجدته فرائده · ولا الاستاذ مفتاح هنأته بلاغته ولا امام العبد اغناهُ شعره · وان نسخة من قصة القاضي والحرامي او قصة دليلة المحتالة او قصة هف طلع النهار لاحب الى عامتنا واشهى الى خاصتنا من درر هوءلاء العظماء وجواهرهم وادعى للشجون ثم ابعث للطرب من قصائدهم وفصولهم · سقاهم الله · رعاهم الله · عاشوا مظلومين وماتوا مظلومين · واودعت بطون المقابر كنوزاً يتباهى بامثالها ملوك الارض · يروى ان بعض الانكليز يقول لو خيرنا بين ان نخسر الهند كلها او نخسر شكسبير لاخترنا خسارتنا للهند ولابقينا شاعرنا عوضاً عنها ونحن ماذا نقول ! نقول لتحيى الديكة والحمائم · ام نصيح ليحيي الدستور

انا لنطمع اليوم في ان ننال ما لا يتاح لنا الا بعد

خمسين عاماً فمثلنا مثل جماعة من العميان قيل انهم ركبوا احد المعابر (القوارب) ليعبروا النيل . فقال قائلهم : هل لكم في الخروج من المركب من غير ان تدفعوا اجراً . قالوا بلى . قال : اذن فاسمعوا لما اقول . اذا قارب المعبر الشاطئ صاح النوتي . «فلّق» . فثبوا هنالك وثبة رجل واحد وتفرقوا هرباً واعلموا انهُ لا يترك معبرهُ ويعدو وراءكم . فقبلوا المشورة . وكان النوتي يسمع المؤامرة وهم لا يشعرون . فلما توسط النهر صاح . « فلّق » . فوثب العميان فوقعوا في البحر وغرقوا . واني لاخشى ان ينادينا الغرور نداء النوتي فنغرق غرق العميان .

الامة في حاجة الى نوابغها ونوابغها غرباء بينها والصوت الارن والقول المسموع ما يهتف بهِ قوم صمتت البابهم ونطقت ألسنتهم . هم المسيطرون وهم الزعماء .

حسب الاديب في الشرق نعوتاً يكال له كيل الحشف . فهو الاديب الفاضل والشاعر البليغ والكاتب البارع واللوذعي

والالمعي وغير ذلك . وليت هذهِ النعوت تجبي لمن تصدق فيه . او فيمن تكاد تصدق فيهِ . ولكنهُ مشارك فيها مشاركة الغبن . أهل البلدة كلهم ادباء فضلاء بلغاء فصحاء ما سلم من ذلك ملك ولا سوقة . واظن هذهِ هي المساواة التي يطلبهـا مجانين الدستور لا المساواة في الحقوق التي يثني عليها اهل الانصاف .

ألا من مبلغ عني كل اديب في الشرق انهُ اديب وانهُ فاضل وانه لوذعي وانهُ المعي وانهُ فصيح وانهُ بليغ وانهُ عند الناس وجودهُ مثل عدمهِ . وانه أهون على امراء الذهب من ديك من ديكة الهند او من حمامة من حمائم اليمن

كنت ذات يوم راجعاً من دار البريد وفي يدي سيكارة هي أخرى اخواتها فمر بجانبي رجل يسرع في مشيتهِ فاستطارها من يدي حتى وقعت على الارض وكان اليوم شديد الهاجرة لافح الحر . فلما توسطت الشارع رأيت عربة نظيفة فيها رجل من رعاع القوم وامامه اثنان من

الاوز . ثلاث رفقة في خير عربة يقودها جوادان مطهمان .
فرفعت طرفي الى السماء وقلت : يا رب تلهمني الشعر .
وتجري يراعي بما يستطيع من النثر وتجعل عبادك يدعونني
بالاديب ان صدقاً وان كذباً . ثم ارى اني احقر من الاوز
في هذا الشرق !!! ثم انصرفت صابراً .

هذا ميدان واسع . يتعب الجائل في ارجائه . ولولا
حقوق للأدب واهله ما سطرتها . ثلاثة اخوان . مكروب
ودفينان . اما الرثاء فبعض ما يجب ولن يفوتني ما استطعت
منهُ . واما النحيب فاني سوف انحب . فمن لي بمن يساجلني
الدمع ويشاركني في الشكاية . اما انا لمظلومون .

٨

ويل للناس من الناس

يريد الناس في الدنيا هناءً
ويأبى ان يجود بهِ الزمانُ
حياة حاربتهم منذ كانت
وحظ حاربوه منذ كانوا
وآمالٌ تغرهمُ عجاف
واحداثٌ تكذبها سمان
وكم من مستنيل ليس يعطى
وكم من مستعين لا يعان
تكاثرت الهموم فلا يراع
يوفيها الشكاة ولا لسان

أماناً ايها الخصم المعادي
اذا دانِ العدى وجب الامان
أإن رغبوا اليك رغبت عنهم
لقد هانت رغائبهم وهانوا
وفي الناس بعضهم بخيرٍ
الا كذبوا علَى بعض ومانوا
فما للخير في الدنيا اوان
ولا للخير في الاخرى اوان
ولكنَّ الشباب لهُ جماحٌ
ليالِيَ ثم يعقبهُ الحران
يشد عنانه رأي جميع
الى امد فيسترخي العنان

****

وداعٍ جاء يدعوني لنصحٍ
وقد وهت النهى ووهى البنان

تعبت من الكلام فليس يجدي
كما أملت نظم او بيان
وكانت صبوةٌ ونزعتُ عنها
فها انا لا ادين ولا أُدان
وما اسفي على عهد نقضى
ولكن صنت عهداً لا يصان
ظللت امينه دهراً طويلاً
وكنت اظن اني لا أُخان

****

ودار لا يزول القتل عنها
كأنَّ الحرب فيها مهرجان
اهاب بها اليراع فلم تجبهُ
وناداها فجاوبت السنان
تظل بها السواعد عاملات
يصرفها ضرابٌ او طعان

بكت عيني الشباب وحين جفت
مدامعها غدا يبكي الجبان
لعمرك ما لذي نصحٍ مكان
ولا للنصح في الدنيا مكان
فدعني ان آمالي استكفت
فلي شأنٌ وللامال شانُ

٩

احدى عواصف الضمير

اجل انا خاطئون . صدق لسان الحال وشهدت التجاريب من ذا الذي يرى عدوه يغدو ويروح امام داره . ينتزعه الرصاصة بعد الرصاصة ويعلم انه لا محالة داهمه يوماً اذا ضاقت به الحيل واعياه طول الاصطبار . ثم يدع باباً مفتوحاً لا حارس عليه . أكنا نرجي ان تأخذ عدونا رحمة بنا . ام كنا نحسب ان سيقف امامنا ويحيينا بالورد والآس . انا اذن مجانين

قوم عباءوا فيالقهم واستحثوا سابحاتهم وجاءوا يمطروننا قنابل ويصلوننا ناراً . طمعاً فى ارض لا تربتها خصبة ولا ماؤها عذب . نهباً واغتصاباً . يطأون الخدود المعفرة ويمشون

عَلَى العظام النخرة . لم تسترجعهم آداب العصر العشرين ولا نفذت الى قلوبهم صيحات الساخطين من ابنائه . يستنيمون اذا عجزوا ويفتكون اذا قدروا . قد استحلوا بلاداً غاروا عليها لان أهلها عرب ولان حكامها ترك . فكانوا فيها اشد خشونة من اهل القرون البائدة

مضت خمسة شهور ونحن مع ايطاليا في حرب . قد اعدت لنا الموت في الوانه المختلفة ونحن ماذا اعددنا لها . سوى فئة قليلة تغذوها الفدافد ويسقيها الغيث . تسيل نفوسها عَلَى زرق الاسنة دوننا ونحن كعجائز الولائم . نأكل ونحملق . وفي ام عواصمنا اناس اعطوا الله مواثيقهم لا يتركون هذه الدولة وفيها من الحياة بقية . الامم المحبة لنا تنصح واهل الرأي منا يرشدونهم . ولكنهم حرنوا حراناً . لا يريدون ان يتحولوا عن وجهتهم

أنحن مخلصون لهذه الدولة . كلا ثم كلا . يا بعد ما بين الاخلاص وبين هذه القلوب . ان نحن الا اقوام اذا صفا الدهر لنا اياماً فخرنا بغير فخار وادعينا ما ليس من طباعنا

كم بذلنا في سبيل الدفاع عن طرابلس · لولا ما نديت به اكف سراة مصر وسائر بنيها من المال لجفت اكباد ابطالنا في حومات الوغي · قصور شاهقة اظلت شطي البسفور وذهب مذخور ونفائس مصونة في خزانات من الحديد · وعندنا اصحاب الدولة والعطوفة والسعادة والعزة والرفعة غصت بهم مجالس الشرف لم تسنح نفوسهم بنصف ما سنحت به انفس المصريين وكان قائلنا يقول قبل اضطرام الحرب: الا لا تجهلن علينا ايطاليا · الا لترجعن الى صوابها · اما لنقوون اما لنفعلن · فلما جهلت ايطاليا ولم ترجع الى صوابها ملأنا الدنيا صياحاً واعولنا اعوال الثاكلات · وذهب وعيدنا كنفثة مصدور في ريح عاصف

اي بني بلادي · لا اكذبكم · اذا كان اغش الناس لكم احبهم اليكم فهذا قلم لا يعلم تلك المسالك · اختلفنا وجوهاً واشكالاً ولكننا اتفقنا طباعاً وغرائز · ياويل المخلص العاقل بيننا · يرى ويفهم ويقول فلا يسمع انما يطربنا نغم المادحين · سواء علينا صدق ام لم يصدق · انما نريد ان

نُمدح . ومن وقف بيننا موقف الناصح الامين تهاوت على قفاه الاكف حتى تبقي عَلَى اديمِهِ وسوماً وندوباً

يا ويلنا . اذا برزنا الى ميادين الحفاظ وسلاحنا عبراتنا فما نستبقى للعقائل التي في الخدور . هذه رقة لا الحضارة مصدرها ولا الحكمة اصلها . غير ان العجز . ذاك المسكر الذي امال الارؤس على المناكب هو الذي يجمجم تلك العبرات . نيل بها اعقاب الجدود المولية . ولبئست حيلة المحتال . كل قطرة من تلك الدموع تكون كلمة ذم تزاد في صحائف تاريخنا

اذا جاء ميعاد الجدال في ميزانية الحربية والبحرية وقف ناظراها يستنديان اكف الامة لزيادة الانفاق . والانفاق لدينا عن سعة . فما لبيروت . الثغر الباسم في محيا الملك العثماني تلم به دوارع الدولة المحاربة . فترميه بصواعقها وليس على بابها سوى دارعتين . ما ضمت اضلاعهما غير الهواء . لئن كان ايجاد اسطول يذود عن بيضة هذا الملك يحتاج الى زمان طويل افلا تستطيع الدولة ان ترفع عَلَى

شط بيروت حصنين صغيرين تجعل فيهما بعض المدافع من معيار ١٣ عقدة فتضطر تلك الدوارع الى الوقوف مكانها وتحمي المدينة واهلها شر البلاء

مدت الى دولتنا الاكف المصافحة تخطب ودها وتعرض عليها معونتها قبل الحرب وبعدها · ولكنها غلبت علَى امرها في قبول الود · فوقفت موقف المرتاب · لا ندري ما تحيز اهذا مقام الشك افلم يبد لنا اليقين · ومتى تطمئن قلوبنا الى اخلاص الناس لنا · ما اخال ان هذه القلوب تطمئن الى شي · ايام تمضي سراعاً وفرص متتالية · ولما نعزم ولما نحزم · ما هذه السياسة

لم تتدبر امرنا بعدة من حزم ولا من قوة · قد تركنا الامور تجري في فوضاها غير ان الموت يدنو منا دنواً · قصاري همنا ان ننشر طرفاً من اخبار وقائع جرت في ميادين القتال · والعدو يسوق الجند بعد الجند · لا ادري متى يتهيأ لنا ان نغضب

أليس من فاضح الخزي ان يصبح كثير من الناس يترحمون على ايام عبد الحميد · ولقد صدقوا وما يجري عَلَى زمان كبرائنا يكاد يجري دموع عبد الحميد · ابو الظلم والاعتساف · اقام في قصرهِ محجوباً الاعن عيون تعود ان يغازلها · فكان لا يعتريه الحياء · لكن رجالنا يظهرون كاقمار التم في آفاقها · فكان من الشرف ان يخجلوا · اما ان يصان الملك على ماوجدوه · لانطمع في زيادة ولكن النعمة العظمى ان لاينقص فاذا اعجزهم هذا القدر من حسن السياسة · فليدعوا تلك المقاعد · غيرهم اولى بها ·

١٠

التكبر وحداثة النعمة

لا بد من التنقل الى الاجتماعيات · فقد تضجر النفوس اساليب السياسة · ثم نحن الى الاجتماعيات اشد منا حاجة الى السياسيات · طال عهدي بفصول كنت اريدها فاجدها · ها انا اليوم تصبيني الذكرى وتجدد حنيني الصبوة فارجع الى التجاريب · بعد ان طال بيننا التهاجر

اريد ان اصف التكبر وحداثة النعمة · وليس عندي وصف يرضيني ·لان الذين وصفوا التكبر وصفوه غاضبين · وانا اريد ان اصفه هازئاً لا غاضباً · ويبقى لي شيء اتم بهِ الكلام في حداثة النعمة ·

التكبر ينشأ في نفس المرء من اشياء كثيرة اشدها

الحمق . ثم الاغترار بالانتقال من الضعة الى الرفعة . ثم محاولة العزة عند الناس

المتكبر ينظر الى اعطافه و يأخذ في تغيير قعوده ونهوضه ومشيه ووقوفه حتى يستضحك الناظر . لان النفس اذا خلا منها موضع الفضل وباتت الشمائل معطلة من زينة الاخلاق استمكن التكبر و بدت غرائبه

عرفت رجلاً تكبر بعد عناية اصابته فرايته في احد مجالسه وما زال ينحرف في قعوده و يتلوى في توجهه حتى انشق بنطلونه وافتر عن بياض قميصه . فكان عابساً من فوق وباسماً من تحت . وكاد اهل المجلس ان يموتوا من شدة الضحك

ولقد رايت اناساً من ذوي الالقاب المستحدثة يتكبرون . فهالني الامر . فرحت اتحرى فيهم شيئاً من النبل او الفضل اتخذه عذراً لهم . فاذا عقول بخواتم ربها . لم تمسها فائدة واذا السن يتساقط منها الحديث كجلمود صخر حطه السيل من علٍ . واذا وجوه صفر كل وجه منها كامساكية رمضان .

واذا عيون ما اومض فيها بارق من الذكاء · فقلت في نفسي : ما اشد عبث الدهر · يرفع هؤلاء من مواضعهم ثم يجلسهم مجالس ما خلقوا لها ليفضحهم على رؤوس الاشهاد · ولو تركهم حيث ولدوا لكان اشد رحمة بهم ·

ان لقب باشا في هذا البلد اشد اسكاراً للمرء من زجاجة الويسكي · يناله القروي الذي ربي بين الانعام · وسار يستحث المحراث وتقوم جنباه على مضاجع الهشيم تحت سقوف الاعشاش · ثم ينزل مصر او يطلع الثغر فيرفل في حلة تكاد تنحلّ عن اعطافه يخال رائيه ان ثيابه تمشي وحدها · فيطغى ثم يطغى · ويأتي طغيانه على شكله المضحك وكلامه السمج · كالخضاب على راس الاصلع · فهذا فضح نفسه ولا يشعر انه فضحها · لانه يرى ضحك الناس منه فيحسبه اعجاباً بفضله ·

يا سيدي الباشا · لو تركت هذا الخان وتبوأت عرش بلقيس تنقله الى ايوان كسرى · واتخذت من حمرة الشفق بردك ومن نجوم الافق ازرارك · وتقلدت لامع البرق

حساماً وجعلت قوس قزح حمائله . ما زادك في عيني اجلالاً مثل ادب اجنيه من فمك وخلق كريم اتبينه في طبعك . واني ليزهدني في كثير من امثالك ما بيننا من اختلاف الحال . انا اكتب وهم لا يفهمون . وانا اخلد وهم يفنون . وانا قديم عهد بالنعمة وهم حديثو عهد بها . وانا يكرر ذكري كل ناطق بالضاد وليس فيهم من جاوز ذكره اخر الزقاق الذي يسكنه . اتحدث بنعمة الله . تأدية لشكره فاين انت مني حتى تتطاول عليَّ .

وزراء الغرب واغنياؤهم واعيانهم يتواضعون لمن يغشى منازلهم . وهم لم يبلغوا ما بلغوا من الرفعة الا بالجد والكد وسهر الليالي . وانت قبلت الاذيال ولا تزال تقبلها . فما يرفعك فوق اهل الرفعة .

الا ترى ملوك الغرب كيف يتواضعون فيكلم الملك منهم الجندي ويضع يده عَلَى كتفه ويقول له بني واخي . الا ترى سمو امير البلاد . ما حظي بلثم يمينه احد

الا خرج ولسانه شاكر وقلبه منشرح . ولكنني استغفر الله اليك . لقد قايستك مع غير نظير . ولا اطمع ان تسمو نفسك الى اكثر مما خلقت له . فكن حيث يسر لك ان تكون . مكانك من الطبع اولى لك .

هذا حديث اتى عرضاً . وها انا منتقل الى غيره . شجو في الفؤاد . فاض ثم تدفق . فواحر قلبـاه . كم يعاني المتأمل حالات الناس من سوء اخلاقهم . التكبر وحداثة النعمة . بئس القائدان الى العماية .

السيدات يتجملن بالثياب وبالحلي . والرجال يتجملن بالاخلاق . وان افتن السيدات انضرهن اخلاقاً واطيبهن شمائل . تلك التي يتضاءل عند نور نفسها لمعان جواهرها فما ظنك بالرجال .

رب كرسي يضطرب فوقه حديث النعمة وكأنه جالس على قرن الثور . لو اتخذ درجة لركوب الخيل لكان

ارفع قدراً · ورب متكاء يغوص فيه حديث النعمة لو تحول مربطاً لجواد لكان اشرف قدراً · حداثة النعمة فتنة من شر الفتن · ولكن الشرق مظلوم · محاسنه اقل من مساوىء الغرب · وهو غير ان مختال بها · يا مطلع الشمس وموطن المجد · متى يغنيك الله عن الغرانق ويبعث فيك مثل اولئك · انك لجدير بالرحمة

١١

بين الوحشين الاب والزوج

المَّ بها في حسنها وشبابها
كوردة بستان جنتها انامله
فلما مشى من قلبهِ نحو قلبها
رسول الهوى خابت لديه وسائله
دعاها وستر التيه اسبل دونها
فما زال حتى رفع الستر سابله
ولو لم يحاول ذلك القلب باطشاً
لحال على رغم الخلافة حائله
غزالة وادٍ في حبائل قانص
تبث لغزلان الصريم حبائله

اقام الليالي وهي في قيد اسره
يغازلها لكنها لا تغازله
تضن ويسخو بالوداد وهكذا
يقابل قلب نافر من يقابله
قضاها له الظلم الذي كان قاضياً
وذلك عهد اظلم الناس عادله
تقضى ربيع العمر في غير روضه
ومات وما ناحت عليه بلابله
فيا حسرتا للغصن يذبل وحده
وتبقى عليه ناضرات غلائله
تجاوز غايات الثلاثين جائز
احبته لو انصفته عواذلــه
مضى حكمه لا ارجع الله حكمه
اواخره مذمومة واوائله

رحمة الله عليك يا (آلبوز) بك . رجل جثته اعظم من المحمل المصري اربع مرات ذو لحية كأنها الاجمة

ووجه كانه ميدان القتال وشكل لا يشابه احد الاشكال الهندسية . لم يركب عربة الا كسرها اما صاعداً او نازلاً اكثر علمه باللغة الجركسية ولا يعلم منها اكثر من اثنتي عشرة كلمة . عرفته بسيواس نفيت اليها قبله ونفي اليها بعدي . وكنت اكثر عباد الله تعجباً من نكبة (آلبوز) لانه كان حما السلطان عبد الحميد . وجد الامير نور الدين افندي لامه . فلما علمت ان الحكومة جعلت راتبه مائة وخمسين جنيهاً في الشهر بطل تعجبي وتمنيت لكل احبتي مثل نفيه

اخذنا نتزاور وتحاب اهلانا . فبلغني ان له زوجتين هما آيتان في حسن الخلق والخلق ما رأتهما سيدة الا احلتهما مكان الاجلال فكان آلبوز بك كالاكمة تختفي وراءها هاتان الزهرتان . وانما نفي الى سيواس لخصام وقع بينه وبين بعض المقربين . وان منهم يومئذٍ لجمعا لو اجتمع عَلَى طود لأماله على قواعده

ان للتيجان بين رؤوس الجبابرة واقدام الغواني تنقلات تحدثها الصبابة . وكم من حريص ملك في فروق يهبه جملة لثغر ضاحك وما انبلت السرائر على دول الشرق الا وولت عنها الجدود . وبذا تبتدىء قصة المرحوم (آلبوز) . نشأت له ثلاث بنات . كبراهن ذات جمال يستهوي قلوب اهل الورع . فوصف جمالها لعبد الحميد وهي طفلة . فما اومأ اليها بطرف سبابته ايماءة واحدة الا وقد القي بها بين يديه . ثم فاضت مواهبه علىَ والديها فيضاً . فانعم على ابيها برتبة الميرالاي وادخل في حرس القصر السلطاني . غير ان نفس (آلبوز) بك ترفعت عن الوشاية فبقي مكانه ولم يترقَ في الرتب . وحيل بين الطفلة ووالديها . ما سألا زيارتها الا عُللا بالمواعيد الكاذبة . ومرت الاعياد وهما يرجوان التلاقي بها فلم يقدر التلاقي واتت محنة النفي ولم يزودا بنظرة الى غصنهما الرطب في مغرسه الذي نقل اليه . واذا هي يوماً قد وضعت الامير نور الدين . متقدم الذكر في هذا المقال وعقد عقدها على سلطان العثمانيين

فصارت ثالثة نسائه . اليوم اوفى عبد الحميد على باب السبعين وهي لا تزال في اوائل العشرين .

سمعت انين آلبوز بك ايام المحنة . فقلت هذا اول طود يتألم . خبرت عن حزن جرمه فقلت درة تذوب بغير لهب . وكم تمنى ذانك القلبان لقاء ساعة فضن بها الجبار . اجتث ذلك الغصن الاهيف من منبته . فلما بات في قبضته حاول ان يميله اليه فاستعصى . وما زال يجاذبه السلطانين من ذهب وقوة حتى استماله بالقوة . وما هي استمالة ولكنها اذلال . تبدى على مثل عرش بلقيس . مستقرة بقصر (يلديز) تضم بين ذراعيها فرعاً من شجرة عثمان الباسقة . نعم الظل غير انه محرق . وحبذا الجاه ولكن حماه موحش .

حدثني ابن آلبوز بك . قال : دخلت القصر فانتهوا بي الى ابن اختي الامير وهو في الثامنة من عمره . فاجلسني امامه في عربته وطاف بي الحديقة . وقال سأسأل مولاي

ان يجعلك لي ياوراً · وحين انس خلوة همس في اذني · ان والدتي مشتاقة اليك · لم تنسك ابداً · وهي توصيك ان تحسن التعلم وان تكون نابغاً بين نظرائك · وكان ابن آلبوز بك يحدثني وعيناه مغرورقتان في الدموع · قلت : ذهبت وصاة اختك في الريح هل جاء المسكينة ان اخاها لا يحسن الهجاء

تواقعت قنابل جيش الحرية علَى اسوار الملك المستبد وبينها انفس تدعو لراميها بالتسديد · وابت بعد ذلك اكثر نساء الملك المخلوع ان يشاركنه في محنته وان يسكنَّ معهُ في سجنه · فكانت بنت آلبوز بك فيمن خرجنَ من قصر الاتيني رغبة في الحرية · أبين ان يتحرر العثمانيون والعثمانيات من امر الظلم وان يبقين وحدهن اسيرات ·

يا أسود سلانيك ومناستر · ان وراء السجون لمكربات كشفتم عنهن الكرب · ان رؤوساً عقدت عليها التيجان

تحنى لديكم اليوم اجلالاً .

سمح الزمان للوالدين بلقاء تمنياه طويلاً . فلما شفيت النفس من ألم الفراق رحل آلبوز بك الى الحجاز فمات في طريقه . وطابت ارجاء الحرية للحمامة المروعة بين الوحشين الاب والزوج . فكم قبلة شوق من شفتي الام آلوالهة تستقر على جبين البنت الوفية . سلام على تلك الدار التي اجتمع فيها الشمل . انها لقرارة الصفو والهناء .

١٢

ما اكثر خطوبك يا فروق

نفدت دموعي والاسى لا ينفدُ
اليوم يُبكيني ويبكيني الغدُ
بالله يا وطني اما لك راحم
اكذاك نارك كل يوم توقد
وجدى عليك ولست وحدي واجداً
من يعرفونك واجدٌ او موجد
ذهبت محاسنك التي انشدتها
فاذا صبوت فاي حسن انشد
ان يظلموك فكم اصابك ظلمهم
ان كنت تجحده فما انا اجحد

او ينزلوا بك للحضيض خيـانة

فلمهدنا بك للكواكب تصعد

لو كان في هذي المنازل مصلح

ما ساد في هذي المنازل مفسد

ان يحرقوها ظالمين فبعدها

نار ستحرق في اظاها الاكبد

أفروق ما لك في البرية منجد

كلا ولا لي في البرية منجد

فسنظلين كما ظلمت بعشر

سادوا واكثرهم بارضك اعبد

كم حريق وكم بلاء . امصباح فروق هذه . اكذا دابها الدهر . لا تخمد الا تضطرم . فنيت او كادت . اليوم ينكرها عارفها . اكل هذا بيد القدر . اكذا قضي عليها يروع فيها النيام تحت ظلمات الليالي . ما آوت فئة الا تكشفت فئة . لقد نسيت الثغور الابتسامات . لقد جهلت القلوب الافراح . دجان من الدمع وتهتان يرتفع من نواحيه

صياح الوالهين · الآمان الامان · ما بقيت ارواح ولا اجساد

فروق · لو كان حظي منك مثل اساي عليك لادعيت اني اسعد الناس · ارى بك وجوهاً لا عهد لي بها · كنت افزع منها في دوله الظلم · ولما انشق صباح العدل ظننت ان سنبدل عنها بخير منها · فاذا هي ثابتة كمسامير النحس · لا تقتلعها من مكانها قوة

ما تشتعلين وحدك · كل الاقطار العثمانية في اشتعال نار الحرب ونار الثورة ونار الحريق · اغيضت البحار ام جفت الينابيع ام مزقت صحائف الغيث · ام يبس الكون كله

لبست عليك ثياب الحداد اربع مرات في اربعة اعوام · هذه حياة الحداد · ام آلى بنوك لا يفرحون بعد الظلم · ما اشد كلف الناس بالظلم · من اجل هذا كانوا يدعون لعبد الحميد بالعمر والتأبيد · علا رؤوسهم فاثقلها · واوما الى اكفهم فاثقلها · واشترى منهم وطنهم بثمن بخس · ثم

جاد به على الخراب · ولكنه كره ان يجود به جملة واشفق ان يجعله حصباً للنار

تنفست اطنه عن النار وبكت الدماء ثم كان سكوت يتخلله زفير · فاستبطأ الخطب الفريسة · فاذا دمشق ملتهبة واذا حيفا ملتهبة اهما تشبهتا بفروق ام هي تشبهت بهما · كلا · ان لفروق السبق · ان عهدها بالنار قديم · تجري النار في اوصالها كما يجري السكر في مفاصل النشوان · هي الشواء اللذيذ تسمنها الغفلة وتأكلها الخيانة

لهفاً على هدية الفاتح · لهفاً على الغالية البيزانطينية حبيبة قسطنطين العظيم · سبية الفاتح العظيم · عروس خدر المجد · غانية الشرق في الغرب · المتقلبة على ترائبها الخضر حمائم الموج · الضاحكة بثغر الخليج في وجه الطبيعة · بنت الربيع · ام الخصب · مناحة البلابل · لعبة النسائم

الا ذمة وازعة · الا وجوه تستحي · اعند اجداث العظماء · اجداث الفاتح وسليم والصقوللي والكوبريلي · اتلقاء مراقد الشهداء شهداء الحرية بمقربة من (الكاغد خانة)

لا حزن الا ان تتصدع القلوب كما تصدعت تلك المباني ولا وجد الا ان تنضب شؤون العيون كما نضبت تلك المياه · تفني الالفاظ وتنفد المعاني ولا يوءدي الشكاية لسان ناطق ولا قلم كاتب · واحسرتاه على فروق

ما لنا · ماذا نحاول عند هذا الملك المسكين · لقد مال حتى ضرب الارض بجرانه الا اشفق · الا احتضر · ايتها القلوب القاسية ايتها الايدي العابثة · اما شبعت من القرابين · عفي قليلا · فلقد تعف السباع اذا كثرت لديها الاشلاء

تعالوا ايها العثمانيون ندرك فروق · تعالوا نأس جراحها · عاصمة ملككم · عذراء دولتكم اخوانكم اخواتكم بالعراء موسدون · الا تغارون عليهم من الاعين الخائنة · اليس فيكم من ينهض ليستر جسد عاريا عاش مصونا · ادعوا العثمانيين الى نجدة فروق · هل من سامع · هل من مجيب

****

١٣

لعل النهضة الثانية اثبت من الاولى

كاننا كنا حالمين . اطبقت ظلم عَلَى ظلم حتى التمس الناس بعضهم بالايدي . ثم لاحت ايماضة فانطوت . ثم استمرت الظلمات اربعة اعوام كاملة . وها نحن اليوم نتبصر فنرى سناً باديا فنهتدي به . اذا لم يكن برقه خلباً فانه كوكب الصبح . بعده نهار مشرق الطلعة صافي الديباجة . الا عم صباحا ايها الطلل البالي

كنا في مثل هذا الاوان نسمع ما يقوله المعجبون بالاتحاديين . فنكاد نطاول الجبال غرورا . وكنا اذا ذكر الاتحاديون نطرب به كما يطرب بالصوت الحسن سامعه . فاذا دعا باسم الجمعية داع اصاخت له الارواح في الاجساد . وكم تخيلنا تلك الجمعية فواحد يصور منها مثالا كتمثال (فينوس)

كتبت هذه الرسالة على اثر سقوط الاتحاديين واستلام الوزارة المختارية الكاملية زمام الحكم

واخر بقيم لها طوراً يسجد له كانه طور سينا؟ وظل كل قلم كانه « فرشة » روفائيل المصور الشهير . وظلت سلانيك ومناستير كانهما لوحان من الواحه الفاتنة الخالدة .

وهبنا هذه الجمعية المودات وبذلنا ايام الحياة . فردت المودات وقبلت ايام الحياة . فباتت وهي املاك للارواح من بارئها . وكانت احب الى الناس من النعيم فصارت ابغض اليهم من الشقاء . ولما سطت على المستبد سطوتها . ورحلت به الى موضع امانها . زادت مكاناً وحباً . حتي قدسناها تقديساً وكانت في غفلة من الامة تسرق وتخزن الى ان نما ثراؤها وملئت خزائنها . ثم اشتد ساعدها واستحل سطرها فلم توقع به الا الامة . فاذا سيف من عدل الآله قد سل علَى زقاق « شرف » حتى كاد يحصد زرعه حصدا

انا لنعرف لابطال العثمانيين فضلهم . لقد استعادوا الدستور مرتين . اما المرة الاولى فاتى من لم يصنعوا شيئاً وزاحموهم في الحكم واما المرة الثانية فنرجو ان لاتكون كذلك . اليوم اهل فروق في عيد جديد . هنيئاً لاهل فروق عيدهم -

وانها الحسنا . وان صفيت وفاتنة وان رفلت في الاطمار البالية . اذا بدت على ترائبها قلائد الزينة بين الثياب . رأينا كواكب الافق في الليلة الصافية لن يغيرها ان مآلفها اليوم اجداث وان دورها اطلال . حسبها ان خلصها من ظلم الاتحاديين فان دام لها هذا الهناء فذلك جد عاود الصعود وان ودعها بعد قليل وصل ساعة داوى هجر اعوام

الفرح بالنجح لايدع مجالا للشماتة بخيبة الاعداء ان العثمانيين اولو نجدة . رضينا ان نفوز ولا نبالي ان يرجع الاغيار باخفاق

الله الله . ماطيب شذا الحرية . وما ارق نسائمها . ضاقت بنا بلاد الله ونحن اليوم نمرح بين الخافقين جذلا . دنواً دنواً ايتها الآمال المولية انا نحسبك بعد اليوم ثابتة غير مزعزعة . بضاعتنا ردت الينا . لانطلب من عدو لنا مابين جنبيه . ذاك عطاء من الله . ولا نحاول حسابا على ما مضى . انا في حاجة الى راحة يتلوها العمل

اهلا بوزراء الدولة وشيوخ نجاريبها . احق الموضع بكم

هذه المقاعد · ملك مهزول · واهوال ناصبة · ومكايد مثبوتة · واعداء مختبئون لا ينهض بهذه الاعباء غيركم · فان جاوزتم بنا الملكات وانتهيتم الى الموضع الذي تركنا فيه الاباء · فآمال اصابت وجدود ساعفت · وان حالت فتن الاعداء دون ماتريدون · فشقاء لم نستحقه · ساقه قدر محتم وفناء موعود ·

لن نقترح الان شيئاً · انتم اعلم بما ينبغي لانكم في الدار ونحن نازحون عنها · خلا شيئاً واحداً نطالبكم به ما تحركت في افواهنا السن ان تحموا شيخنا الوطن وان لا تجعلوا عصره السابع آخر عصوره · الاخلاص معان والصدق مرجو · فان قصرت سواعدكم وصلناها بسواعدنا · امامكم السلطان وعَلَى اثاركم الامة · هكذا تنتظم مواكب المجد ·

رحمة الله عَلَى حسن فهمى وصميم وزكي ثلاثة اغصان عات في ارض الوطن · في ربيع الحياة · هصرتها يد الموت بمنجل الجمعية · جمعهم التراب كما تجمع الحرية والمساواة والاخاء كلمة العدل · سلام عَلَى تلك الارواح الطاهرة · لعل النهضة الثانية اثبت من الاولى ·

١٤

كم تحت هذه السماء من أعين باكية

هل يعقل الدهر وهل يسمع
فما الذي يشكو له الموجع
تجري صروف لا على نية
نخالها تبطيء اذ تسرع
وكلنا شاكٍ وباكٍ على
أشياء قد زالت فلا ترجع
كم تحت جون الليل من مهجةٍ
تكاد لا تمسكها الاضلع
وصاحب النعمة لاهٍ بها
وحامل النقمة لا يهجع

رحماك يا خالق هذا الورى
ارثِ لبلواه اذا يضرع
صعب علينا بعض ما قد جرى
أما اذا شئت فما نصنع

تحت مضارب الظلام . وفي استغراق سكونها . حركات تحجبها استار الغيوب . هي الاقدار . لا تغالب لانها خلقت غالبة . ولا تتقى لانها ترى ولا تُرى . والبرايا أغراض منصوبة تنزعها بالرمية بعد الرمية . فتصيب الاجساد وتنفذ منها الى الارواح . ولا يسمع لوقعها الا مثل وقع القبلة عَلَى جبهة الميت في نعشه

ما توشك البسمة ان تنطفئ فوق ثغر الا وتجعده آثار البكاء . ان ينابيع الدموع لمعينة . وان منابت الحسرات لخصبة . وللامل الكاذب وميض في ليالي الخطوب . أشقى الناس من يعلق به بصره

بكينا بيروت في جراحها الدامية واعولنا عَلَى التيتانك

في غرقاها . وها نحن اليوم نندب تكساس [1] في اضاحيها .
يا ديباجة الافق انطوي . ويا سحب الربيع موري . ويا مياه
الاوقيانس غيضي . ويا صفحة الارض تمزقي . ويا رواسيها
ميدي . حتى لا يبقى على هذه الكرة الموجاء الا دخان الحسرات
منعقداً في جوها على ارواح المظلومين

سمعت يمامة ترجع على فنن الدوح . فهاجني ترجيعها .
قلت يا يمامة . دوحك مورق فينان . وماؤك عذب رقراق .
وعشك تلاعبه انفاس الصبا وملعبك طيات النسائم وملك الله
في فضائه فما شجاكِ فابكاكِ . ومن التي عليك هذا
الترجيع . بطاردك الصياد الخائن فتعجزينه ولا تعلمين انهُ مدركك
يوماً . وتتوعدك كواسر الهواء متحاومة عليك . وان في عشك
لفراخاً زغب الحواصل . فهل اتاك ان للاقدار وثبات لا
مهرب عنها . تذكرت قول ابي فراس

ايضحك مأسور وتبكي طليقة
ويصبر محزون ويندب سال

---

١ باخرة عثمانية اصطدمت بلغم وغرقت في ميناء ازمير

لقد كنت اولى منك بالدمع مقلة

ولكن دمعي في الحوادث غال

لقد تنقي الحرب بالسلام ولكن بمَ تنقي الاقدار

مكان الدمعة الحائرة علَى المحجر المسهد مكان اليتيم الضائع علَى السبيل الموحشة . تتلألأ ثم تختفي . ولو دامت مكانها لكانت الشقوة اعظم

ايتها الام الثاكلة اجملي جزعاً . وايتها الايم الواله اقتصدي وجلاً . ويا ملاك المهد . ابك واستبكِ . صوتك مرنان ودمعك لؤلؤ رطب . دع الايام تنظم من ذلك اللؤلؤ قلادة تلبسها الرحمة . هي اولى بهذا الحلي دون كل الحسان

في ذمة الله ايتها الانفس المستفاضة والاشلاء الضائعة بين السماوات والبحار . اذكرينا انا ذاكروك . وابكي علينا انا باكون عليك . لم يبقَ بيننا وبينك رسائل سوى العبرات .

١٥

ما يمنع القلوب ان تطير من الصدور

على ابواب الوطن · بين السماء المضطرمة والارض المضطربة · جمعان حالاهما مختلفتان · جمع سكن سكون الابد اتخذ من حواشي الجبال مضاجع طاب عليها رقوده تنفحه انفاس الشتاء وتنديه مدامع السحاب · كأن الشباب زاده واليوم ينتقصه البلى · وكأن الامل اسكت افواهه واليوم تنطق الظلامة جراحاته · وجمع ركزت له راية · فهو مقيم يحميها · لابث مكانه · لا يستقدم ولا يستأخر · كأن اقدامه استأصلت في موقفه · موكل بمخارم جتالجه · يضرب عليها بالاسداد · قضي عليه ان لا يسهر الا على ظاهرها وان لا ينام الا في باطنها · وفي اعشاش القرى ومنازل المدن

اصوات تجاوب بالعويل · وعلى السرر المتقابلة اجساد استخلصت من الموت او كادت · التفت حولها العواد · وبين هذه القيامة دولة كظل الجام على المائدة · لا يراه الا المتثبت · تستجمع قواها لتصول صولة واحدة · اما الى حياة تستمر فيها المغالبة واما الى موت تستكن فيه الامال · هذا هو المشهد الذي نتملى من مشاهدته دول اوروبا · بنات التمدين عرائس القرن العشرين

لو شاءت تلك الفاتنات ان لا تروع بهذا المشهد لفعلت · اشارة واحدة كانت تستوقف الخصمين · غير انها آثرت الغرض على الانصاف · فباتت وعلى اعناقها من آثار تلك الدماء المراقة قلائد ليست حلى ولا شكلاً · تلازمها على توالي الحقب · شاهدة بآثامها عند احفادها

سليلة السبعة الاعصر محتضرة · انا نراها مختلجة على مرقدها · لن يضير زوالها الا العثمانيين · هم وحدهم اولى الناس بالوجل وبالجزع · ان تستتم انفاسها تقض بسنن الماضيات من الدول · غير ان ذاك الاسم الكبير · اسم

العثمانية . يبقى خالداً . مشرقاً في أوله . مظلماً في آخره .
ويشهد الله والناس انه لم تمحه اكف الاعداء بل اكف بنيه .
وانه لم يضيعه افراط الاعداء في هجومهم بل تفريط الابناء
في حذرهم

تنادوا بالحرية فاتت واعطافها تقطر دماً . بئست الغانية .
اغلوا لها المهور فاسترخصت الامال . لم يبق يومئذٍ في
مكامن الفتنة جان الا ونبدى للاعين . لقد اصبحت دور
الحكومة كخلايا النحل من كثرة المترددين عليها . كل يحمل
رأياً ويبتغي له ثمناً . حتى راحت ملايين الذهب في تلك
الهوات . ولم تحصل الامة من ناهبيها الا مواعيد ابعد شيء
عنها هو الوفاء . وثقت بالدولة فوليها المتغلبون . ووثقت
بالجيش فاستهواه المتغلبون . ووثقت بنفسها فضربها المتغلبون .
ثم وثقت بدول التمدين فاعرضت عنها بوجوهها النضرة .
الا في ذمة الله تلك الثقة . تهدى الى الخلائق فيردونها .
كأن الله تعالى لم يخلق لها صاحباً

اذا دعت الفائدة دول الغرب بذات في سبيلها كل

ود · ولو كانت ابصر بالفائدة من وجه حلال لاقبلت على هذه الدولة مطالبة بفض هذا الجمع الثائر · جمع الاتحاديين فانه لا شأن له اليوم · ما رجاله الا كغيرهم · تتخذهم الامة اوصياء على نفسها ولم تولهم الوصاية دولة من الدول · فلو كانت هذه الدول اتحدت عَلَى مطالبة الحكومة العثمانية بذلك · لافادت العثمانيين ولاستفادت

أية امة تطيق هذا الذل · خمسة اعوام طوال · مضت وأعنة الامور بأيدي اناس لا ندري من اين طلعوا · فيهم الجاني والمستبد والمتعصب والسارق والممتهن · اوزاع واعناق لا تكون اسراباً ولا اقطاعاً · فكيف تكون بناة مملكة يراد ان يعاد بناوءها

تخاطفوا ما ادخره عبد الحميد وتناهبوا ما عاق باركان الخزائن الفارغة · وانزلوا الويل عَلَى روءوس الامة حتى استغاثت بالاغيار · واوقعوا في الناصحين تقتيلاً وتعذيباً · وصالوا عَلَى اهل الرأي يخرجونهم من وظائفهم · ثم فرطوا سلك الممالك فتهاوت متتابعة من طرابلس الغرب الى

البلقان . وجاءوا في اواخر ايام الدولة ليحرموها الموت في دعة

اربعون مليوناً واكثر من الاربعين مليوناً . ذهباً عيناً . لو اشترت الحكومة العثمانية بهذا المال حجارة ترصف بعضها فوق بعض لحالت دون ايغال المتغلبين في ارضها . اين ذهب هذا المال . . اين بات ذلك الجيش الذي قالوا انهُ في مقدمة جيوش العالم

قد كان لانور بك ولاخوانه من الرأي ما يعلمهم فرق ما بين الحرب في درنه والحرب في البلقان . هذا مقدار من المعرفة لا يحتاج ان يكون صاحبه اركان حرب . فكيف خيل اليهم ان مقتل ناظم باشا واسقاط ذلك الشيخ المعظم كامل باشا يستدفعان غارات الاعداء . ليهني . اولئك المتطفلين ان الامة غافلة . وان غفلتها ستصاحبها الى ان يتقلص هذا الظل المتضائل ظل العثمانية . ولكن كيف السبيل يومئذ الى استرجاع ما مضى . وما مضى لا يسترجع

استثنى انور بك ورفيقيهِ علَى علاتهم . ولكن ماذا صنع

الباقون . قضى منظم هذا الجيش اوقاته في بيته كما تقول جريدة الطان . وتقلد طلعت بك حسامه في اول الحرب وتوجه الى ادرنه . واليوم مات من القواد والجنود من مات وجرح من جرح واسر من اسر وبات في حصار ادرنه الوف من المدافعين وفيهم خلق كثير حتى من مكاتبي الجرائد والقائد لم ينزل عن فراشه الوثير والناظر لم يبد للاعين الا محتمياً بظهر انور وانصاره . هذا مبلغ شدة القوم في الذود عن دولتهم وهذا منتهى نجدتهم في معاندة دول العالم

ليس لدينا لسكان البلاد احصاء يوثق به . غير انهم كانوا يقولون ان عددهم ثلاثون مليوناً . وكنا نزيد ثمانية من عندنا فنقول ثمانية وثلاثون مليوناً . فكيف يبقى عدد الجنود المجندة من هذه الملايين غير متجاوز ثلاثين ومائة الف مقاتل ؟ !! ما ذاك الا ان العدة منعدمة . وان الامة افتقدت نشاطها الاول وغلب عليها اليأس وادركها الوجوم . والا لعبت تلك الوديان بسيل من قنا وجياد ولتوجت ذرى الشم الصعاب بالمقاتلة من كل الاجناس

لطم حقي باشا في بعض هجماتهِ اسماعيل كمال بك لطمة ذوى صوت وقعها في آذان النواب . فصبر لها اسماعيل كمال واسرها في نفسهِ . ولم ينهض في ذلك اليوم نائب يؤاخذ الضارب . جهل الجميع ان حقي باشا لطم البانيا باسرها . اجل لقد احس بوقع تلك اليمين كل الباني ذي حياة . ولقد انتقم اسماعيل كمال غير ان انتقامه اصاب الدولة ولم يصب المعتدي . وبقي حقي يغشي معاهد لذاتهِ في بيرا وغيرها . والدولة والامة تنضحان دماً وتتقدان الماً

نموت كراماً او نعيش كراماً . ما اجمل الكلام لو قالهُ غير قائلهِ . وكم من كلام حق يراد به الباطل . ولا يحتاج الخادع لخدعة الامة العثمانية الى اكثر من هذا . غير انا واحسرتاه نعيش اذلاء ونموت غداً اذلاء . وتبقى تلك الاموال المختلسة من خزائن الدولة ينفقها مختلسوها في سبيل لذاتهم . لا يحيون الدولة الزائلة بقطرة من دمع . ما فات مات . وقد قال كثير عزة

فقلت لها يا عز كل مصيبة

اذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

الان لما كادت الحرب تطوي شرتها ويدعى الى التقاضي قاتل الامة وناهبها · يأتي الجانون وايديهم تقطر دماً واكياسهم تنفجر ذهباً · يستعيدون المخادعة · ليستروا تلك الاثام · ثم ينادون بيننا باسم الوطن الذي قتلوه · ونصدق نحن ما يقولون · اننا اذن ابعد الناس عن الصواب · كلا ان اسم الوطن ارفع من ان تماضغه تلك الافواه · نخشى عليه من حر تلك الانفاس التي تنفخ بسموم المطامع · على الامة ان تنظر في امرها · لا بد لهذا العبء الثقيل ان يوضع · افي ساعة الموت نروع بهذه الوجوه · ما يمنع القلوب ان تطير من الصدور ؟

١٦

عبد الحميد مبكياً بعد سقوطه

ان من عجائب الشرق ان يشكو ابنه الرجل حاضراً وان يشتاق اليهِ غائباً . ومن عجائبه ان يكون لكل امريءٍ رأيان ليس لهُ احدهما . ولكنه يحماهما استخداماً لهما . فكلما حل بين جماعة من اهل احد الرأيين كلهم بهِ . والان ارجع الى استيفاء شرح ما اردت .

رأيت اناساً يقولون رحمة الله على ايام عبد الحميد كانت خيراً من هذه الايام وسقى الله عبد الحميد . كان احسن من رجال اليوم حالاً واحكم تدبيراً واسلم نهجاً . يا عجباً لهذه الرؤوس . خلت من كل تأمل . وانما برق لها في العهد الحميدي بارق المال والجاه والوسام فهاجها . والا ماذا

يبكيها من افتقاد عبد الحميد ·

ألم يأتها ان رجال اليوم اذا قصروا عن الخروج بهذه الدولة من ظلماتها فذلك لانهم ربوا في دولة عبد الحميد ونشأوا في ظل سلطانه ·

ألم يأتها ان عبد الحميد لم يفسد الدولة وحدها بل افسد الامة معاً ابى عليها مكارم الاخلاق كلها · ما انتفع بكذب الا حض عليه · ما انتصر بخدعة الا ساق اليها · اربع وثلاثون سنة كل سنة منها كالعصر طولاً · من ابن الخمسين الى ابن السنة الواحدة مستثمر بيد عبد الحميد · ناشئ في دوحته ·

اجل · ان الفساد سبق عبد الحميد الى الامة ولكنه تخاذل عنها احياناً ولم ينتصر الا بعبد الحميد ·

رأيت رجالاً كان الناس يطاردونهم في العهد الحميدي فاذا هم اليوم موضع لرحمة الناس · لا أسميهم والناس يعرفون من أريد · سلبتهم الدولة القابهم وردتهم الى اصولهم ولكن الامة لم تبرح حافظة لهم القابهم موءثرة لهم على سواهم ·

بمن استعان عبد الحميد اذ بطش . وبمن استهدى الى مكامن الارواح المظلومة اذ استنفرها . ألم يكن هؤلاء المرحومون اليوم أعوان نقمته وأهل مشورته ألم يسلب الامة لكي يمنحهم . ألم يضعها لكي يرفعهم . ما أشد جهل الامة بما لها وبما عليها . ولو رثت لهولاء المطرودين نخوةً منها ونجدة لكان ذلك منها تكرماً . ولكنها تنظر الى ما بقي بايديهم من الغنائم فتعظمهم امتشاركهم في بعضها . على انها خاطئة . لان الكاسبين في ظل عبد الحميد كسبوا ما كسبوا ببيع اغلى ما يملكه الانسان وهو الشرف . ومن يجعل الشرف فدا المال كيف يجود بذلك المال لمن يملقه .

هذا خطأ غير انه خطأ لا يرجى اصلاحه . الناس مغرمون باولي الجاه . ومغرمون بمن كانوا اولي الجاه . اذا ساير رجل رجلاً من اولئك الواقعين التفت يمنة ويسرة ليرى كيف تجول الابصار فيه . ولقد يهز منكبيه ويتأود في مشيته زهواً لانه يساير من كان له لقب او قدر في دولة عبد الحميد . وبهذا القدر من الرأي ومن الحرية تريد الامة أن تتدنض في أغلال الاسر فتكسر حلقاتها

هيهات . ثم هيهات . عرف اعوان عبد الحميد ذنوبهم وخافوا ان
تثار لهم الامة خفافاً وان تعبث بهم اهواناً . فوجدوا عند الامة خلاف
ما خافوا . وهذا من اكبر دواعي الامان لمن انوا بعد عبد الحميد وسلكوا
طريقه . هم يقولون نربح اليوم وان نخسر غداً . اذا اسقطتنا الحكومة
تلقتنا الامة با كفها . وفيما ندخر من المال سبيل الى حياة طيبة وذكر
جميل . وان أمة لا تعرف الجميل من القبيح لتعجز عن مقاضاة امثالنا .

ايه يا اهل الشرق . ويا بني العثمانية يتعاقبكم المحتكمون يجزون
نواصيكم . ويسلون ارواحكم من اجسادكم . وانتم حامدون شاكرون
كأن الله لم يخلق اناساً لغفران الاساءة ونسيان الجميل سواكم .

اذاً فذوقوا ولا تشتكوا . ان اعداءكم اليوم من اولي الحكم احبتكم
غداً ولكني كنت اقنع منكم . ان يبقى في فكر بعضكم شيء
من هذه الاساآت تعاتبون عليها اخوان الغد عتاباً اذا مالوا بأثامهم
عن تلك المقاعد . ولكنكم لن تفعلوا . وارحمتا عليكم . لم اجد امة
اولى منكم بالرحمة . احسن الله عزائكم في عبد الحميد واحسن الله
عزائنا فيكم .

****

١٧

بين انقاض الوطن

ديار الحمى حيث القنا والصوارمُ
تحييك من عينيَّ الدموع السواجمُ
لقد طرقتك الحادثات فجاءةً
واهلك في أمنٍ وبأسك نائمُ
فبيناك والليلات فيك ولائمٌ
اذابك والأنهار فيك مآتمُ
لك الله لا تنفك عنك نوائحٌ
ألم يبقَ في ذا الدوح الا الحمائمُ
أدهركِ ذا الوادي من الدم مترع
اذا امسكت بالوبل عنهُ الغمائمُ

****

حلمنا بشيء وانتبهنا بضده
وما يجتني من كاذب الحلم حالمُ
وكانت لحاجات فلما تيسرت
تزهّد مشتاق وأقصر هائمُ
أقيم بناءٌ بالعراق على شفا
ولم تقوَ آساسٌ له ودعائمُ
فما ظن منه قائماً فهو مائلٌ
ومن ظُن منهم بانياً فهو هادمُ
وهل ينفع الأطلالَ تجديد عهدها
اذا درست آثارها والمعالم

****

لحا الله قوماً حلوك مغارماً
وراحوا وفي الاعناق منك مغانمُ
همُ وعدوك العدل كي يظلموا به
ابا ظالماً لكن دهتك المظالمُ

ولا خير في ملكٍ اذا جار شعبه
ولا خير في ملكٍ اذا جار حاكمُ
وكيف انتقاء الخطب قد جل وقده
اذا بردت تحت الصدور العزائمُ

***

واربعةٍ مرت ولم تخل لامرئٍ
تهادت عَلَى الاقطار وهي سمائمُ
سعت بالنيوب العصل تنفث موتها
ولا عجبٍ بعض السنين اراقمُ
تعوض يأساً من غدا وهو آملٌ
وشام يقيناً من سرى وهو واهمُ
ولما اباحوا حرمة الرأي للهوى
اهابت باطماع الغواة المآثم
فهبت هبوب الريح من كل جانبٍ
تدافع عنها بعضها وتزاحمُ

فما تستطيب الحكم فيه مشاركٌ
ولا تستلذ الغنم فيهِ مقاسمُ
ويمسي لديها طائمٌ وهو خائف
ويضحي لديها آمنٌ وهو واجمُ
وليس بمجدٍ في الغواية ناصح
وليس بمجدٍ في الصبابة لائمُ
وكيف يقر المجد في ظل دولةٍ
وحامدها يحيى بها وهو ناقمُ

****

تداعوا لنصر والرجا عنك ذاهب
فهلا تداعوا والرجا لك قادمُ
وبت وبات الداهمون تعاضدوا
فاءمّا تراخى داهم شد داهمُ
فلم ارَ خطباً مثل خطبك ناهضاً
يدافعهُ ملك كملكك جاثمُ

ولم ارَ مجداً مثل مجدك ناصعاً
يظلله حظٌ كحظك قاتمُ
تطالعك الاقدار وهي عوابسٌ
ويا طالما حيتك وهي بواسمُ
وترثي ابلواك المداين رحمة
وقد حسدت فيك السرور العواصمُ

****

فيا مَن رأى تلك الفتوح التي خلت
تجرع اسىً قد اعقبتها الهزائمُ
لإن كنت في شكران حالك جارماً
فما انت في شكران ماضيك جارمُ
سنبكي لعهدٍ عارهُ متجدد
ونأسى بعهدٍ مجده متقادمُ
وفي الدمع والتأسإ تخفيف لوعةٍ
اذا اثقلتها الكاربات الكواظمُ

****

ومعتركٍ للموت اما سماؤه

فنقعٌ واما ارضهُ فجماجمُ

تنازع فيهِ النصرَ خصمانِ اعزلٌ

يدافع عن ملكٍ وشاكٍ يهاجمُ

تأخرت الاعلامُ عن مستقرها

وفر محاميهـا وقر المخاصمُ

تفزعت الاجام وهي شواهد

ضراغمها تسطو عليها الضراغمُ

تجاوبها من حولها في زئيرها

رعود لها في الخافقين زمازمُ

مدافع منها قسطل متراكب

بنادق منها عارض متراكمُ

وصائب حتف مستهل فواقع

وراجف روع مستطار فحائمُ

ووجه ردىً في اوجه الكل ضاحك

ووجه رجاً في اوجه البعض ساهمُ

كأن الوغى قد صار في انفس الورى
هياماً فمن يقتل يمت وهو هائم
فما لهم غير الدماء مشارب
وما لهم غير الرمام مطاعم
اذا آنسوا ضعفاً فكل محارب
وان وجدوا بأساً فكل مسالم
وما خير سلم فوقه الشر عاصف
وموج المنايا تحتـه متلاطم
تشير اكف بالسلام خديعة
وتنزو باخرى للصدور الصوارم
وكم كان في هذي النفوس منافس
فلم يبق في هذي النفوس مساوم
ولم تبق في الدنيا انفس فضائل
ولم تبق في الدنيا لطبع مكارم

****

هزيمة «قرق كليسا» عند اول صدمة

ولما يكن في «قرق كليسا» مصادمُ
اناف عليها جحفلٌ متحاملٌ
وطال عليها مأزق متلاحمُ
تقاعس «عبد الله» فيها عن العدى
ولم يلق «عبد الله» جيشاً يقاومُ
وقد كان فيها سلة من ضراغم
فبادت وولت للنجاة النعائمُ
بدت تستغيث الهاربين من الردى
زيانب في اترابها وفواطمُ
سوافر في ذاك الدجا قد تبذلت
ترائب منها روعة ومعاصمُ
فليس لهم عن مورد العار دافع
وليس لها من مصدر البأس عاصمُ
اما كان في القوم المولين راحم
فقد قيل في القوم المغيرين راحمُ

ادرنة لا يبرح دعائم المجد قائماً

فان دعام الحرب تحتك قائمُ

عرمت عرام الدهر جاشت صروفه

وهل يستذل الدهر والدهر عارمُ

الا ان هذا موسم المجد عائداً

ولا غرو للمجد الاثيل مواسمُ

يظل بنوك الباسلون بعزهم

وآناف اعداهم لديك رواغمُ

تبوأتِ بين الموت والهون موضعاً

اقرك فيه خطبك المتفاقمُ

فان تشتهِ موتاً يرقْ لك كاسه

وان تسأمي هوناً فمثلك سائمُ

اذا نحن اعظمنا بلاءك روعة

فذاك بلاءٌ اعظمته العظائمُ

فان تسلمي تنسى رزيئة هالك

وان تهلكي لا يهنأ العيش سالمُ

شطلجة لاتنفك عنها خضارم

كذاك لاتنفك عنك خضارمُ

فياعجباً للويل منه مشاكل

وياعجباً للويل منه ملائمُ

****

بلادي مالي لاأرى غير واطيءِ

ثراكِ الماً يبق في الناس لائمُ

توالتك تيجان فشادت لك العلى

فلما استتمت هدمتها العمائمُ

لأِن كان في الاسلاف بينك غالب

فما كان في الاسلاف بينك حازمُ

لقد بان عنك الرأي مذ بان كاملٌ

وقد مات فيك البأس مذ مات ناظمُ

طغى الشر في بعض النفس ولم يزل

يرب الى ان اعلن الشر كاتمُ

الا جمح الغاوون فيك جماحهم
فهيهات تجدي بعد هذا الشكائمُ

تولوا سراعاً حين سلت بواتر
وعادوا سراعاً حين صلت دراهمُ

فجاؤوا يسوسون الانام سياسة
(سدى لم تسسها قبل ذاك البهائمُ)

فكم عالم صاحوا به انت جاهل
وكم جاهل قالوا له انت عالم

اقاموا وما فيهم عن الزور تائب
وظلوا وما فيهم على الختل نادمُ

عزيز علينا ان ذا الملك زائل
وان الذي قد اذهب الملك دائمُ

****

صحا كل شعب فاسترد حقوقه
فياليت يصحو شعبك المتناومُ

هو الشعب افنى دهره وهو خادم
وليس له فيمن تولاه خادمُ
يُقلَّب من عهد لمهد على الاذى
اذا زال عنه غاشم جد غاشمُ

****

اعادينا حكمتمو السيف بيننا
فجار وحكم السيف كالسيف صارمُ
فلا تطمعوا ان تهضمونا بهذه
فليس لحر في البرية هاضمُ

الى حضرات القراء

انتهت التجاريب ويرى القراء من مطالعتها انها كتبت في اوقات مختلفة على حسب تقلبات الاحوال السياسية فابدى الكاتب رأيه في تلك الحوادث وقد علمت من سعادته انه كان يود مواصلة الكتابة وتدوين كل ماعنَّ له غير انه رأى ان اكثر تجاريبه مؤلم كما جاء في المقدمة فاكتفى بهذا القدر ولسان حاله ينشد قول المتنبي

ليت الحوادث باعتني الذي اخذت

مني بحلمي الذي اعطت وتجريبي

وقد عرف قراء مؤلفات ولي الدين بك يكن السابقة كالمعلوم والمجهول والصحائف السود وهذا الكتاب المؤلف سياسياً واجتماعياً وسيصدر قريباً كتاب عفو الخاطر فيعرفونه ادبياً اذ قد خلى الكتاب المذكور من كل شيء سوى الادبيات من شعر ونثر واني ابشر حضراتهم ان سعادته ساع في جمع ديوانه ونشر سائر اثاره فيعرفونه اذ ذاك شاعراً كبيراً كما عرفوه كاتباً قديراً

فؤاد عجيب